شرق الغربيين

رحلة إلى المشرق

1834 - 1835

أ. و. كينغلك

ترجمة: محمود العابدي

Twitter: @alqareah
18.5.2016

سلسلة شرق الغربيين

رحلة إلى المشرق

1835 -1834

أ. و . كينغلك

ترجمة: محمود العابدي

Twitter: @alqareah

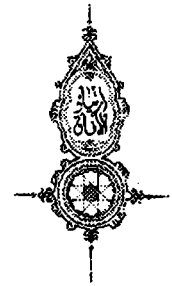

سلسلة شرق الغربيين

رحلة إلى المشرق

أ. و. كينغلك

ترجمة: محمود العابدي

الطبعة الأولى: 2005

حقوق الطبع محفوظة

دار السويدي للنشر والتوزيع

أبو ظبي، ص.ب: 44480

الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 6322079 ، فاكس: 6312866

تصميم الغلاف: الفنان ناصر بخيت

الصف الضوئي: القرية الإلكترونية – أبو ظبي

دار ورد للطباعة والنشر والتوزيع

سورية – دمشق ، ص.ب : 30249

هاتف: 5141441 ، فاكس : 2716103

الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر

الإشراف الفني: د. مجد حيدر

التوزيع: دار ورد، هاتف: 5141441

All rights reseved . No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the puplisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Twitter: @alqareah

يشرف على هذه السلسلة

نوري الجرّاح

مستشار التحرير:

علي كنعان

أمانة التحرير:

محسن خالد

أيمن حجازي

الإشراف الفني:

ناصر بخيت

التنضيد والتنسيق:

علاء البيوك

Twitter: @alqareah

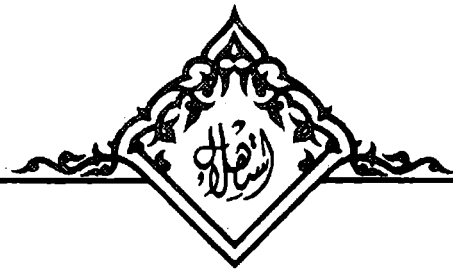

يصدر هذا الكتاب في إطار خطة متكاملة لتحقيق وترجمة ونشر مجموعة مختارة من أعمال الرحالة والحجاج والأدباء الأوروبيين إلى الشرق، وذلك منذ أقدم الرحلات إلى هذه الديار وحتى الرحلات التي قام بها الأدباء والحجاج والسفراء والسائحون في مطلع القرن العشرين.

بما يشكل موسوعة معرَفية متكاملة تكشف عن جغرافيا الشرق كما تمثلتها عبر العصور يوميات المسافرين الأوروبيين.

يسجل لأدب الرحلة الغربي إلى الشرق محاولته اكتشاف عالم مختلف ونقل الانطباعات عن هذا العالم لكن هذا الأدب كان في جانب منه قائماً على تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسمِ صورٍ دنيا لهم، بوساطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والإيروسيِّ والعجائبيِّ.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كتبِ الرحلات هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على

Twitter: @alqareah

هذا الصعيد، يشكّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكّرُ بها.

والواقع أنه لا يمكن قراءة نصوص السفر الغربية إلى الديار المقدسة في فلسطين والأردن، أو إلى المناطق والأقاليم المجاورة، والشرق بصفة عامة، بمعزل عن جملة التطورات التي شهدها التاريخ الأوروبي في علاقته بالعرب والشرقيين عبر محطات كبرى (الحروب الصليبية، سقوط القسطنطينية، سقوط الأندلس، نشأة الاستعمار الحديث) وبالتالي فهي نصوص تأسرها النظرة الغربية المسبقة إلى الشرق والشرقيين. ولا يجوز عزل هذه النظرة أيضاً عن استراتيجيات دول المركزية الغربية في التطلع نحو أراضٍ وأسواق واستثمارات في الشرق، وذلك في ظل حراك اجتماعي، سياسي، علمي، اقتصادي، عسكري، إمبراطوري الطابع، ومن ثم حركة دؤوبة للبرجوازية الوليدة في مجتمعات دخلت عصور الصناعة الثقيلة وتحولت إلى مراجل أكول لم يكن ليكفيها ما تملكه من ثروة خاصة بها، فراحت عينها تتسع أكثر فأكثر على ثروات الشرق، وقد رافقها في الرحلة إليه وصّافو الشرق من رسامين، ومستكشفين، ومغامرين عبر المدن والصحارى والجبال والسواحل قريبة وبعيدة عن عواصم الشرق.

بمتعةٍ وحبٍّ اكتشافٍ للنظرة المختلفة يمكن قراءة جزء من نصوص الرحالين الغربيين إلى الشرق والديار المقدسة، وبتحفظ

Twitter: @alqareah

وتنبه لما في السطور وبين السطور ووراء السطور يجب قراءة بقية الأجزاء. من دون إغفال أهمية هذه النصوص كوثائق عن رؤية الآخر لنا.

لم يقع اختيارنا على نصوص هذه السلسلة ترجمة ونشراً من باب تبني ما جاء فيها، وبعضه قبيح، أو مجافٍ للحقائق، إنما بصفتها وثائق أدبية وفكرية تعكس نظرة النخب الغربية المثقفة نحو الشرق وأهله وثقافاته، فهو هنا شرق الغربيين وليس شرق الشرقيين. وهي، غالباً، نصوص تكشف بجلاء، وأحياناً بشكل فاضح، عن تلك الاستعلائية الغربية الصادرة عن ثقافة متمركزة على ذاتها، ومطمئنة إلى مقاييسها. لكن الاطلاع على هذه النصوص واستكشاف ما فيها يبدو لنا فعلاً مهماً لابد لقراء العربية، على اختلاف مستوياتهم ومرجعياتهم ومشاربهم، أن يباشروه ليمكنهم أن يبلوروا فكرة أوضح عن نظرة الغرب إلى عالمهم، ليس فقط من باب الوعي بالأشياء، وإنما من باب تحديد قيمتها أيضاً.

بإنجاز هذا المشروع بشقيه الورقي والإلكتروني تتوافر المكتبة العربية على كنز فكري وأدبي أنتجته الأمم عبر قرون وما يزال أغلبه في مخطوطات، أو طبعات قديمة صارت خارج التداول، وبالتالي نتطلع إلى أن تكون هذه الموسوعة بمثابة ذخيرة للثقافة العربية تمكن من وضع شرق الرحالة بصورة موسوعية في متناول وعي الأجيال المقبلة.

محمد أحمد السويدي

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

المقدمة

لقد أصبح أدب الرحلة في عصرنا هذا من المواضيع التي تشد القارئ إليها بقوة. وهي فرصة يجب أن تستغل في تشويق القارئ العربي إلى الاستزادة من هذه الثقافة الحديثة ثقافة الإيغال في القراءة. وفي طليعة ما قرأت من كتب السياحة في اللغة الإنجليزية كتاب «رحلة كينغلك إلى المشرق». هذا الكتاب الذي كان يُعطَى للصفوف الثانوية في مدارس حكومة الانتداب على فلسطين، بسبب سلامة لغته ودقة تعابيره. ولكني وجدت له ميزة أخرى وهي أنه يتكلم عن بلادنا منذ قرن وثلث قرن من الزمان.

ولد أ. و. كينغلك A. O. Kinglake بالقرب من مدينة تانتون عام 1809 من أب صَرَّاف وأم اشتهرت بالتواضع والتُّقى وغرست في نفس ولدها هذا حب ركوب الخيل وقراءة إلياذة هوميروس.

وفي كلية أيتون Eaton بدأ هذا الشاب حياته الدراسية ثم في كلية ترينتي Trinity من جامعة كامبردج حيث تعرف فيها على الروائي الشهير ثاكري Thakery، وفي سنة 1832 التحق بمعهد الحقوق وأخذ إجازته القانونية سنة 1837 ثم تفرغ للمحاماة التي استمر فيها حتى وافاه الأجل سنة 1891.

قام كينغلك برحلته الشهيرة إلى المشرق العربي في العام 1833 ـ 1834 عندما كانت الرحلات إلى هذه البلاد حلماً يراود كل فتى أوروبي. ولكن السياحة فيها كانت محفوفة

Twitter: @alqareah

بالمخاطر، ولا يقوى عليها إلا من كانت تستهويه المجازفات والمخاطر، مع توفر نفقات الرحلة التي كان لا يطيقها إلا ذو السعة واليسر.

لقد توافرت هذه العوامل لصاحبنا كينغلك، فقام برحلته التي استغرقت نحو عام كامل، وكان يرسل أخبارها بشكل رسائل إلى صديقه إليوت واربرتون Eliot Warburton الذي كان يزمع الرحيل إلى المشرق، فاستفاد منها في كتابه عن رحلته والذي سماه الهلال والصليب.

كانت هذه المعلومات قَيِّمة شيقة سَجَّلَ فيها كينغلك المؤثرات والانطباعات التي تركتها في نفسه، من عادات أهل البلاد الذين زارهم واختلط بهم واطلع على أفكارهم وخَبِرَ تقاليدهم بأسلوب قصصي وصفي جذاب يأخذ بمجامع القلوب. ولم يكن القصد من هذا الكتاب الإشارة إلى مواقع أثرية أو تاريخية أو ضبط مسافات أو قياس أبعاد. إذ لم يكن القصد منه أن يكون دليلاً سياحياً، بل كان تسجيلاً لأحوال العرب ومجتمعهم في هذا الجزء من العالم العربي خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر. ولهذا فقد تخاطفته الأيدي عندما نشر وأعيد طبعه ثلاث مرات في عام واحد، وصادف من الرواج ما لم تصادفه نظائره وأشباهه من الكتب، باستثناء كتاب «سينا وفلسطين» لمؤلفه القس ستانلي. مع أن كينغلك كان يعتبر نكرة بين الرحالين البريطانيين. وله كتاب ممل عن حرب القرم في تسعة أجزاء ظهرت على التوالي في السنوات من 1863 حتى 1888 وبقي يُدَرَّس لطلبة المدارس الحربية إلى ما قبيل الحرب العالمية الأولى 1914 ـ 1918.

ومن المستغرب أنه لم يقدم أحدٌ من أبناء المشرق العربي على ترجمته ونشره للقائه أبناء بلده الذين كتب عنهم. وآمل أن أكون في إقدامي على نشره الآن مترجماً وملخصاً وملماً بكل ما يهم القارئ العربي بما يسد هذا النقص.

Twitter: @alqareah

وأرجو أن تكون هذه الرحلة الحلقة التالية لرحلة بركهارت سنة 1812 التي ترجمها السيد أنور عرفات ونشرت باسم دائرة الثقافة والفنون سنة 1969. وأرجو أن أتمكن من نشر الحلقات التالية من هذه الرحلات.

محمود العابدي

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

تمهيد تاريخي

الإمبراطورية العثمانية

لما كان موضوع هذا الكتاب سياحة في جزء من أملاك الإمبراطورية العثمانية كان لا بُدَّ من توضيح موجز لتاريخ هذه الإمبراطورية، حتى يلم كل سائح بالأحوال الاجتماعية والسياسية في بلاد يعتزم الرحيل إليها والسياحة فيها.

ففي حوالى سنة 1288 طرد المغول قبائل الأتراك من سهل طوران فاتجهوا إلى الغرب. وبعد ستين عاماً على تجوالهم تمكن زعيمهم «عثمان» أن ينزع القسم الشمالي الغربي من آسيا الصغرى من حكامها الروم، ثم يأخذ في توسيع إمارته على حساب أخوانه الأتراك السلاجقة الذين كان حكمهم قد آل إلى الضعف والاضمحلال. وقد أخذ الأتراك من سلطانهم عثمان اسمه فعرفوا فيما بعد بالعثمانيين. وخلف أورخان أباه عثمان في توسيع رقعة سلطنته في أرض الروم البيزنطيين. فقد أرسل ابنه على رأس حملة كبيرة إلى داخل الأراضي البلقانية حتى أصبحت مرتفعات «غاليبولي» في زمنه قلعة عثمانية. وقد تَمَّ في هذا العهد إنشاء الفرقة العسكرية المعروفة «بالإنكشارية» والتي كان قوامها ألف شاب مسيحي أُجبروا على الانخراط فيها بالقوة. ثم ما لبثت هذه القوة أن زاد عددها وتوسعت امتيازاتها حتى أمست تشكل خطراً على الدولة نفسها. وفي سنة 1826 ثار رجال هذه القوة في اسطنبول وكان

Twitter: @alqareah

عددهم آنذاك قد ارتفع إلى 135 ألف إنكشاري. ومن حسن حظ الدولة أن السلطان كان حازماً فقتل أكثرهم وشتت الباقين.

وفي خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر امتدت أملاك العثمانيين مسافات بعيدة في داخل أوروبا. وفي سنة 1453 افتتح السلطان محمد الثاني مدينة القسطنطينية عنوة. وبذلك قضى على الإمبراطورية البيزنطية التي عاشت ألف عام بعد زوال أختها الإمبراطورية الرومانية الغربية على يد برابرة الجرمان. على الرغم أن الانكسارات كانت تلحق بالأتراك بين فترة وأخرى لكن سلطانهم امتد على شبه جزيرة البلقان كلها. وفي أول القرن السادس عشر ضَمَّ الأتراك إلى هذه الإمبراطورية القسم الأكبر من آسيا وطرابلس وتونس والجزائر. وفي عهد السلطان سليمان القانوني أصبحت تركيا في مقدمة الدول البحرية إلى جانب قوتها البرية الضاربة.

واستمر العثمانيون يتوغلون في أوروبا حتى عام 1683 عندما تراجعوا عن أسوار فيينا. ثم توالت عليهم الانهزامات وتطرق إليهم الضعف والانحلال وعَمَّت الرشوة رجال الحكومة المركزية وتصدع بنيان هذه الإمبراطورية الداخلي. مما سَبَّبَ الفوضى والخروج على النظام ودَوْس القانون.

وإذا أضيف إلى هذا العامل الداخلي عامل خارجي وهو الضربات التي أخذت تتلقاها من الدويلات الأوروبية كالنمسا وهنغاريا والبندقية وبولندا عرفنا مدى الجراح التي أثخن بها جسم تلك الإمبراطورية، ورغم محاولة بعض السلاطين إصلاح الوضع السيئ فإن القوة الرجعية في الدولة تضافرت مع جمود رجال الدولة فقضت على كل أمل في الإصلاح. كما وأنَّ أساليب الحكم التي جرى عليها الأتراك كانت في مجموعها مغايرة لما يجري عليه الغربيون - فوليُّ العهد مثلاً كان يوضع تحت المراقبة الشديدة حتى أصبح وكأنه في قفص. ولا يكاد يأتي دوره في الحكم حتى يأخذ في الانتقام لنفسه من أفراد الأسرة، الذين يتوجس منهم مخاوف

Twitter: @alqareah

ومنافسات. وكثيراً ما كانت تمتد يده لبعض الموظفين وإلى رجال الجيش الذين كانوا مخلصين لسلفه، ولم يكن جزاء القائد الذي يخسر المعركة سوى الموت، إن لم يكن له حزب قوي يشفع له. أما الوظائف الحكومية فكانت تباع كالسلع هذا إلى أن الدولة لم تشجع الصناعة والتجارة، كما وأن الطباعة لم تعرف طريقها إلى هذه الإمبراطورية حتى منتصف القرن الثامن عشر، فكانت أكثرية الشعب الساحقة تعيش في جهل مطبق وأمية عمياء.

وكان عدد الرعايا المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية كبيراً جداً. وهم من أتباع الكنيسة الأرثونكسية التي انفصلت عن الكنيسة الغربية سنة 1054م وقد أخذت الدول الأوروبية تساعد الرعايا المسيحيين على الانفصال عن الخلافة العثمانية. وعندما زار كينغلك اليونان وجدها تتمتع باستقلالها، كما كانت الصرب تتمتع باستقلال يكاد يكون تاماً. ولم يبق للأتراك إلا بعض الحاميات كما كان الحال في مدينة بلغراد.

وبعد أن خرج نابليون من مصر قام فيها ضابط عسكري يدعى محمد علي اغتصب الحكم من الوالي التركي. ولما رأى محمد علي أن الخطر على سيادته يكمن في قوة فرسان المماليك دعاهم إلى وليمة عشاء. وعلى حين غفلة داهمهم بقواته النظامية فذبحهم ذبح الشياه. ولم يكن للسلطان بُدٌّ من إظهار الرضا بما فعل محمد علي، لا بل اعترف بسلطانه على مصر. ولم يطل الأمر بعد ذلك فقد عهد السلطان إلى محمد علي بإخماد ثورة الوهابيين فأرسل هذا ابنيه طوسون وإبراهيم في سنة 1818 على رأس حملة قضت على الحركة الوهابية قضاءً مبرماً. ثم عاد وكلفه السلطان أن يرسل حملة ضد اليونان. فأرسل محمد علي ابنه إبراهيم فأفلح في الاستيلاء على ميناء ميسو لونجي سنة 1825 إلا أنه هزم في نافارينو بعد ذلك بعامين.

ولما رفض السلطان أن يجعل محمد علي والياً على سوريا، كما كان والياً على مصر، أرسل هذا ابنه إبراهيم باشا ليغزو البلاد

Twitter: @alqareah

السورية فاجتاحها حتى كاد يصل إلى اسطنبول نفسها لولا أن طلب السلطان معونة الروس، فتوقف عندها إبراهيم باشا وانتهى الأمر به إلى معاهدة هنكر سكيلسي HUNGAR التي أبرمت سنة 1833. وقد تضمنت بقاء سوريا في حوزته. وفي السنة التي أعقبتها قام كينغلك بسياحته إلى الشرق الأدنى.

ولم يكن من السهل على من يروم السياحة في البلاد التركية أو في البلاد التي تعيش الحكم التركي أن يسير بمفرده، بلا معين ولا نصير، إذ لم تكن السكك الحديدية آنذاك معروفة في هذه البلاد. كما لم تكن الطرق مرصوفة كما نراها اليوم. وكانت وسائل الركوب تقتصر فقط على حيوانات الحمل كالخيل والحمير والبغال. حتى أن العربات التي تجرها الخيول والتي كانت شائعة الاستعمال في شوارع لندن مثلاً لم تجد طريقها بعد إلى البلاد التركية.

وهكذا كان عليَّ أن استأجر الحمير وأن استأجر معها من يعاونني في رحلتي هذه من ترجمان وخدم يساعدونني على تعرف الطرق ويقومون بنقل الأمتعة عندما ننزل في مكان من الأمكنة، إما لمبيت الليل أو لطلب الراحة من عناء الساعات التي كنا نقضيها في سفر مضنٍ مرير.

Twitter: @alqareah

الليدي هستر ستانهوب

نزلت ببيروت ففرح بي الأوروبيون واستقبلوني استقبالاً حاراً. أما السكان الوطنيون فقد احتفى بمقدمي المسيحيون منهم. وفي هذه المدينة أخذت أشاهد بعض النساء يخترقن شوارعها وعلى رأس الواحدة منهن «قبع» ينسدل منه على جسمها ثوب مزركش جميل تظهر فيه المرأة وكأنها تمثال لشبح أو خيال. ولقد علمت أن هذا الزي من الرداء خاص بنساء الطائفة الدرزية التي تقطن قمم سلسلة الجبال المحيطة بميناء بيروت من البر. كذلك فقد كنت أشاهد من خلال تنقلاتي جماعات من السكان الجبليين يفرون من أمامي هنا وهناك، يحسبون أن في جماعتي فرقة من جباة أموال الدولة أو عصبة من الشرطة، تلاحقهم لتنفيذ التجنيد الإجباري، في خدمة محمد علي الوالي المصري، وأنَّ ما أذكره عن سكان هذه البلاد هو في جملته مستقى من الكتب، عدا ما أشاهده بأم عيني من ملابسهم ومظهرهم الخارجي.

ولم ألبث أن اكتشفت أن موضوع الساعة الذي كان يشغل أفكار الهيئة الاجتماعية في تلك البلاد كان سيدة إنجليزية غامضة اسمها ليدي هستر ستانهوب، التي تعيش في دير قديم على سفح جبل من جبال لبنان، يبعد عن المدينة مسيرة يوم واحد. وقد أضفت هذه السيدة بامتناعها عن مقابلة الأوروبيين سحراً غامضاً على شخصيتها التي كانت وحدها كافية لإثارة الدهشة والاهتمام. ولم تكن هذه المخلوقة العجيبة إلا الليدي هستر ستانهوب الابنة الكبرى

Twitter: @alqareah

لإيرل ستانهوب EARL STANHOPE حفيد لورد شاتام SCHATHAM وابنة أخت وليم بِت W. PITT. ولدت في لندن سنة 1776. وكانت الليدي هستر تقوم بدور المضيفة في دار خالها «بت» رئيس الوزارة البريطانية. كما كان لها النفوذ الكبير في شؤون الدولة وملء المناصب الكثيرة فيها والتي كانت تشغر بين حين وآخر. وفي خلال هذه الفترة كانت الليدي هستر تشمل أسرة والدتي بعطفها الزائد. وكانت الأسرة تكن لها من الحب والاحترام ما جعلني أحفظ خلال أيام طفولتي هذا الاسم على كثرة ترديده، مثلما حفظت اسم روبنسون كروز لتوافق هذين الاثنين في ميلهما للمخاطرة والأسفار. وكما أن حياة ذلك البحار لم تكن لتعلق في ذهني كحادثة وقعت، فكذلك كانت حكاية هذه السيدة الإنجليزية التي أصبحت بطلة، لم أكن لأعتبرها سوى ضرب من الخيال، أشبه برحلات روبنسون كروزو، لأني لم أكن قد سمعت القصة الكاملة عن مخاطرة هذه البطلة. وكل ما كنت أعرفه في أيام طفولتي أن في إحدى خزائني ذكريات عزيزة عن أيام طفولتي. ومن بين هذه الذكريات رسائل وضعت بعناية فائقة إلى جانب هدايا ممتازة أُجبرت على أن أقدرها فوق قدرها. وعلى أن أُحلّها أسمى مكان، لأنها وردت من ملكة الصحراء، ملكة عاشت في الخيام وحكمت قبائل العرب الرحل، وعلى كل حال فقد أهمل ذلك الموضوع بعد أن شببت عن الطوق. ومنذ ذلك الحين حتى الساعة التي وطئت بها قدماي بلاد المشرق لم أسمع قط باسم الليدي هستر ستانهوب أما الآن فاسمها على كل لسان، أسمعه أينما حللت وحيثما أقمت، تحيط به هالة من الغموض والإبهام.

وأكثر ما ينسبون إلى هذه السيدة غرائب وعجائب لا يكاد يصدقها العقل، حتى قيل إن سكان الجبال يعتبرونها مخلوقاً ملهماً، بل لقد غالى بعضهم فذكروا أنها تدعي لنفسها فوق ما ينسب إلى الأنبياء.

ولقد استعدت بعض ما نسيت عن هذه السيدة، وشعرت وأنا

Twitter: @alqareah

أستمع إلى قصصها الفريدة النادرة أن والدتي ستغضب وتحزن إذا عرفت أنني كنت على مسيرة يوم واحد من خدينة صباها ولم أسع للقائها. وبدافع الاطلاع والمعرفة بعثت إليها رسالة ذكرت فيها اسم والدتي وأبديت رغبتي في زيارتها، إذا هي سمحت وأحبت سماع أخبار صديقتها القديمة.

وبعد أيام أربعة حمل إلي جوابها فارسان، أحدهما إيطالي المولد يعيش في ظل السيدة طبيباً وخادماً أميناً. أما الثاني فهو خادم هذا الإيطالي ورفيقه في السفر.

كانت الرسالة الجوابية رقيقة وعلى جانب من المجاملة. تدعوني فيها. غير أن حالتي الصحية لم تسمح لي بالسفر إلا بعد بضعة أيام.

إن سوريا كباقي أجزاء الإمبراطورية العثمانية لا تعرف الرحلات المنتظمة ولو على الخيل، لا سيما بين بيروت وبين المكان الذي أقصده. ولذا كان يتحتم على كل مسافر مثلي أن يستأجر خيله ويدبر رواحله بنفسه، فعمدت إلى ذلك، واستأجرت الخيل والبغال اللازمة للقيام برحلتي من رجل طاعن في السن تعلوه المهابة ويجلله الوقار. وكان معاونوه يدعونه «الشريف» وقد استحق هذا اللقب، لا بالنسبة إلى الدم الطاهر الذي يجري في عروقه من سيد الأنبياء «محمد» فحسب، بل بالنسبة للحياة الشريفة التي عاشها، طاهر الذيل، بريئاً من الخطايا. ودلالة على هذا اللقب كان يلبس عمامة خضراء تغطي رأساً جلله الشيب.

وقد صحبني في هذه الرحلة مسيري MYSSERI وكان يتقن سبع لغات ـ لم تكن العربية واحدة منها لسوء الحظ ـ ولذا اضطررت إلى استئجار ترجمان آخر. ولم تكن هناك صعوبة تذكر في الحصول على من يقوم بهذه المهمة. فقد عثرت على ديمتري الذي كان يتكلم العربية بطلاقة ويخاطبني باللغة الإيطالية. وهو خياط يوناني متحمس لأرثوذكسيته، تكالبت عليه تصاريف الزمن

Twitter: @alqareah

فأخرجته على صورة أبشع منظر لبني آدم. إلا أنه أثبت أنه خادم من طراز لا مثيل له في المقدرة على تنفيذ كل ما أطلب منه بإخلاص وأمانة.

غادرت بيروت مبكراً وتوجهت نحو الجنوب على ساحل البحر إلى أن اقتربت من صيدا. ثم خليتها على يميني وأخذت الطريق تصعد بنا في إحدى الروابي اللبنانية، وعلى قمة إحداها قام بناءٌ شاهق عريض بدا لي من جدرانه القاتمة وكأنه قلعة تقوى على صد أي عصابة من الأشرار، في القليل من العتاد والخفيف من السلاح. غير أن الإهمال قد أسدل عليها أستاراً كثيفة، حتى بدت وكأنها مهجورة منذ عدة قرون. ولما وصلنا أشار الدليل هذا هو الدير الذي تقيم فيه الليدي الإنكليزية.

كان منظر الساحة التي وطئتها قدماي يوحي للإنسان أنه في وسط قلعة محصنة، لا داخل بيت للسكن، تخيم عليه الطمأنينة، ويسوده الأمن والسلم. وكان يرابط في أركان الساحة عدد من الجنود الألبانيين، في ملابس رثة ووجوه كالحة شرسة، تكاد تقرأ في تجاعيدها إمارات الاستعداد للقتال المتواصل. وكان بعضهم يدخن الغليون، بينما اضطجع الباقون على أكوام الحجارة، وكأنهم لصوص تهاووا على الأرض إثر طراد مضن ومتعب.

ثم واصلت سيري ممتطياً صهوة جوادي داخل قسم آخر من البناء حتى إذا بلغت نهايته ترجلت وقادني أحدهم إلى باب يصل بين الساحة والفناء المكشوف وبين شقة تقع في الطابق الأرضي. وإثر دخولي الغرفة اقترب مني إنسان يلبس الملابس الشرقية، وهو يمطرني بوابل من الانحناءات والتحيات. ولكن الظلام الذي أخذ يسدل أستاره على جوانب الغرفة آنذاك حال بيني وبين تبيان ملامح ذلك الشخص الذي استقبلني هذا الاستقبال الحافل المهيب.

ولما كنت أعلم أن الليدي هستر كثيراً ما كانت تتزيا بزي الرجال أخذت ألقي على مسامعها بالإنكليزية عبارات المجاملة

Twitter: @alqareah

المألوفة عندنا، من إنسان لم يتأثر بعد بوحي النبوة عند أول زيارة لنبية طار ذكرها في الخافقين. ولكن هذا الشخص الذي خاطبته وصببت في أذنه تلك العبارات لم يزد على الإكثار من الانحناءات والتعظيمات، حتى كاد أن يلامس برأسه الأرض، دون أن يفوه ببنت شفة. فلم أجد والحالة هذه مندوحة عن بذل ما في وسعي في أن أبادله انحناءة بانحناءة واحتراماً باحترام. ولكنه ما لبث أن اكتشف الوهم الذي وقعت فيه، فأخذ يقنعني بأنني لم أتشرف بعد بالمثول بين يدي السيدة العظيمة، وأن النسمات الإلهية التي هَبَّت علي لم توصلني بعد إلى مرتبة أعلى من مرتبة ذلك الطبيب المسكين الذي حمل إلينا منذ أيام رسالة سيدته من صومعتها إلى مدينة بيروت.

أما الليدي هستر فقد بعثت إلي مدفوعة بواجبات الضيافة تأمرني أن أستريح بعد الذي لاقيته من عناء السفر، ثم أتناول طعام العشاء بعد ذلك. كان الطعام شرقياً بحتاً وطيباً جداً. وقد سرني فيه خمر لبنان المعتق.

وبعد الفراغ من تناول العشاء أقبل الطبيب يحمل إليَّ تحيات سيدته مشيراً إلى أن من دواعي سرورها أن تستقبلني. وكان الليل قد أرخى سدوله وأخذت السماء تمطر مدراراً، وقد ابتلت ثيابي وأنا أسير خلف مرشدي، بين الساحات المكشوفة التي كان عليَّ أن أجتازها قبل أن أصل إلى ردهة الاستقبال. وأخيراً اجتزت عتبة الباب فوجدت نفسي داخل غرفة صغيرة أسدلت ستائرها الكثيفة على نوافذها لتمنع تسرب الهواء البارد. وأمامي مقعد كبير مريح تجلس عليه صاحبة النبوءة. وما أن رأتني حتى نهضت من مقعدها ترحب بكلمات مقتضبة، ثم أشارت إلى كرسي على بضع ياردات من مقعدها، وبقيت واقفة بلا حراك حتى اتخذت مكاني ثم جلست السيدة متربعة على عادة الشرقيين. ولكنها أراحت قدميها بعد أن أسبلت على رجليها من الزنار إلى القدمين منديلاً أبيض لتغطي بشاعة الجلوس في سروال ظاهر أمام عيني أوروبي.

ومما أذكر عن أولئك الذين عرفوا الليدي هستر أنها لم يكن لها

Twitter: @alqareah

في شبابها أي شبه بينها وبين اللورد شاتام، ولكني عندما أبصرت ملامح تلك المرأة الذابلة التي تحمل على كتفيها عبء السنين من الأعوام في وجهها الناصع البياض وعمامة الكشمير التي تخفي شعرها، ولباسها الذي اتخذته من العنق حتى الركبتين من الكتان الأبيض ذي الطيات الناعمة، آمنت أنها هي شاتام العظيم في كبرها.

لقد كان في حياتها ما يدعو إلى التعظيم والتبجيل، فبعد وفاة الليدي شاتام سنة 1803 عاشت هستر في بيت واحد مع خالها إيرل وليم بِت الثاني. وعندما تولى بِت رئاسة الوزارة سنة 1804 أصبحت الليدي هستر وزيرة الدولة للمآدب والحفلات التي كانت الحكومة تقيمها على حساب الخزينة، وبما أنني لم أشاهد السيدة إلا في أواخر حياتها، ما كنت لأتصور مطلقاً ما قيل عنها آنذاك حول قدرتها على القيام بالواجبات السياسية في صالونات الوزير، تساعدها حلاوة الأنثى ويدعمها صبرها وتجلدها. ومع هذا فقد سمعت أن تلك السيدة كانت تدير الأمور بمهارة منقطعة النظير.

واقتربت نهاية الوزير وهو يسمع على فراش الموت انتصارات نابليون، فنادى بصوت مبحوح ابنة شقيقته وقال لها «اطوي خريطة أوروبا» ثم مات في الحال وهو يزجي الدعاء لبريطانيا بلسان متورم. ثم مات وقلبه ينطوي على أنبل الأحاسيس وأشرف العواطف نحو بلاده.

ويظهر أن الليدي هستر التي استقبلت هذه المصيبة على طريقتها الشاذة قد زهدت في الجزر البريطانية البائسة التي لم تنعم بالكثير من الخالق، عندما حرمها من ذلك الوزير، فلم تبقه على قيد الحياة. ومع ذلك تعوزني معرفة تعليل الأمور عندما أرى الأشخاص ذوي الأنوف الشامخة وأولي العزة والكبرياء إذا أصابتهم المصائب واستبدت بهم الأحزان كثيراً ما يلجؤون إلى الشرق الروحاني. وهكذا فقد استجابت الليدي هستر لهذا النداء، فنزحت إلى الشرق وأقامت في اسطنبول مدة من الزمن تمتعت فيها باحترام زائد. وانتقلت بعد ذلك إلى سوريا فأخذ الأهالي يظنون فيها أن الإنجليز

Twitter: @alqareah

سيحتلون بلادهم بعدما رأوا الأعمال التي قام بها السير سيدني سميث في دفاعه عن عكا عندما حاصرها نابليون سنة 1799. حتى اعتبره الكثير رسول السيادة البريطانية في الشرق الأوسط. ولذا نظر الناس إلى الليدي هستر بأنها أميرة جاءت خصيصاً لتمهيد الطريق لاحتلال البلاد.

إلا أنني لم أسمع عن هذا الأمر بأذني من السيدة نفسها ولا من أي مصدر موثوق آخر. وإنما كل ما علمته أنها بدأت اتصالاتها بالبدو وذلك بتقديم مبلغ 500 جنيه إنجليزي للشيخ الذي كان باسطاً نفوذه آنذاك على البادية بين دمشق وتدمر.

وقد زاد في نفوذها وأعلى من مقامها ما توافر من الإشاعات عن كرم أرومتها وشرف أصلها وبالغ ثرائها، يضاف إلى ذلك خلقها القويم وشخصيتها القوية، وشجاعتها الفذة، مما ساعدها على أن تتمتع بما يشبه الحكم المطلق بين القبائل.

أما الآن وقد تلاشى سلطانها الدنيوي، فقد أخذت تسعى في الحصول على سلطان ديني، وبلغت من التقوى والورع حداً جعلها تجاهر بوجود اتصال سري بينها وبين رب الأرباب.

وبإشارة من السيدة دخلت جاريتان سوداوان بالقهوة وبغليونين. وقد جرت العادة في الشرق أن يسيطر الصمت على الحضور بضع لحظات خلال الأنفاس القليلة الأولى من الغليون ذي الرائحة الذكية. وقد قطعت حبل هذا الصمت الليدي هستر بأن وجهت لي بعض الأسئلة عن والدتي وعما يتعلق بزواجها. وقبل أن أسرد على مسامعها شيئاً يذكر من أخبار الأسرة أسرعت السيدة بلباقة المرأة الغربية، فحولت مجرى الحديث إلى مواضيع أسمى وأعمق، بدافع قوي من النبوة التي استولت على مشاعرها آنذاك. ولما كنت ملماً بسيرة حواري المسيح الاثني عشر، فقد استطعت أن أجاري السيدة في بحثها المحبب إليها كثيراً، فجلتُ معها جولات موفقة في المواضيع الروحانية والملهمات وغوامض هذا الكون.

Twitter: @alqareah

لقد ذكرت لها ما كتب مونكتن ملنز «Milnes»(*) عن قبائل الغجر في تنقلها من الغرب إلى الشرق، ولا قصد لها من ذلك أكثر من التجوال في أرض اللّه الواسعة والاجتماعُ في كل ليلة تحت القبة الزرقاء.

وعندما أنهيت حديثي هذا سألت الليدي عن مدى ما فيه من الصحة. ولا تسل عن الأثر الذي تركه هذا الحديث في نفسها. فقد خلعت ثوب التحفظ الذي اعتاد الإنسان أن يتستر به عندما يلتقي لأول مرة بأحد الغرباء. وكنت كلما زدتها بحثاً زادت إيماناً بمقدرتي وخبرتي الواسعة في شتى المواضيع.

وأخذت هذه المرأة البيضاء العجيبة تلقي على مسامعي فيضاً من أحاديثها عدة ساعات. وكثيراً ما كانت تحلق في أعلى عليين ثم لا تلبث أن تهبط إلى الأرض. وإذا سكتت عن الحديث شعرت أنني بحاجة ملحة لمواصلة حديثها العذب. وقد استدرجتها إلى أن ذكرت لي شيئاً عن الفترة التي كانت تتمتع فيها بالنفوذ الواسع بين الأعراب. فذكرت بعض الظروف التي واتتها للحصول على هذا النفوذ بين القبائل الرحل، من ذلك أن البدوي الذي جعل ديدنه الغزو إذا لم يجد ما يحاربه فإنه ينظر إلى الأفق بعينيه الحادتين باحثاً عن عدو مغير. كما يتطلع البحارة إلى أمواج البحار، علها تحمل بين طياتها نبأ غريباً. وقد ذكرت لي أن أحد الأعراب، وقد كان له بصر حاد وعينان ثاقبتان لا يجاريهما أي منظار في بلاد الغرب، حَذَّرَ قومه إذ قال لهم: إنه يرى على مدى بعيد شيئاً يتحرك. وقد استشارت تلك القبيلة الليدي هستر في الأمر. فأخبرت أصدقاءها من المسلمين بأن هناك عدداً من الخيول على مرمى بصرها، وأن تلك الخيول لا تحمل أحداً من فرسانها. وقد ثبت فيما بعد صحة كلامها. ومنذ ذلك الوقت كانت قوة بصرها أمراً لا يختلف فيه اثنان.

(*) كان صديقاً حميماً للشاعر تنيسون والكاتب الكبير كارلايل. وكان شخصية محببة في المجتمع وأصبح عضواً في البرلمان سنة 1837.

Twitter: @alqareah

ثم روت لي هذه الحكاية الأخرى عن حياتها بين الأعراب الذين جعلتهم يشعرون بصفات البطولة التي تتمتع بها. ذكرت أنها كانت تسير في أحد الأيام بصحبة فرسان من القبيلة التي كانت قد حالفتها وقد لاحظت في القبيلة حركات غير عادية تنبئ بأنها توشك أن تنازل قبيلة أخرى. فلما سألت شيخ القبيلة عن الأسباب والدوافع أجابها بكثير من الغموض والإبهام. ولما ألحت عليه اعترف لها أن الحرب كانت بسبب تحالف قبيلته مع الأميرة الإنجليزية وأن سوء الطالع جعل القبيلة المعادية تفوقهم عدة وعدداً وتناصبهم العداء، ولأن واجب الضيافة المقدس يحتم على قبيلته الصمود في وجه العدو، مهما بلغت قوته للذود عن السيدة الإنجليزية، وقد أدركت حينذاك ومن خلال اعتراف الشيخ أنها السبب الوحيد لهذا العدوان بين القبيلتين، وأنها هي العقبة الكأداء في سبيل التسوية السلمية بين القبيلتين، وعلمت أن قبيلة هذا الشيخ ستتحمل خسارة فادحة، ولكنه أظهر بعزم وجلاء إرادته في الدفاع عن ضيفتهم المعززة وحمايتها بما هو معروف عند قبائل العرب كلها...

عندئذ قالت الليدي للشيخ إنها لا ترى أن تكون سبباً في جلب المخاطر لأصدقائها، لذلك فإنها يجب أن تغادر القبيلة وهي ليست بحاجة إلى مساعدة أي إنسان، سوى كبريائها وعظمتها.

وقد حاول شيوخ القبيلة أن يثنوها عن عزمها وحذروها من أن القبيلة المعادية لن تترك لها مجالاً للنجاة ولو حل بينهما الوئام. وقالوا لها بلهجة لطيفة ولو أن تركها قبيلتهم سيتيح لهم فرصة مناسبة للوصول إلى حسم النزاع مع أعدائهم فإن أعداءهم سوف لا يتركون لها مجالاً للنجاة، وسوف يذرعون الصحراء، قدماً قدماً، للتعرض لها، فإذا وقعت بأيديهم فإن خلاصها منهم يكاد يكون مستحيلاً.

غير أن الأهوال والأخطار لم تكن لتفزع هذه المرأة الباسلة، فقد وَدَّعت رجال القبيلة الذين أكرموا مثواها وحافظوا عليها عندما عاشت بينهم ردحاً طويلاً في أحسن حال. ثم أدارت رأس فرسها

Twitter: @alqareah

وسارت في طريقها وحيدة دون رفيق أو صديق. وبعد مسير عدة ساعات أبصرت بعينيها الحادتين كوكبة من الفرسان أخذت تتقدم نحوها. ولما اقترب هؤلاء المئات من فرسان البدو أخذوا يصيحون بأصوات عالية مهددين بتمزيقها على أسنة رماحهم. وكانت تستر وجهها حتى تلك الساعة الرهيبة بالخمار التركي، جرياً على العادات الشرقية، ولكن ما إن اقترب منها أول فارس من الفرسان ماداً رمحه نحوها حتى وقفت السيدة على ركاب الفرس ونزعت اليشمك(*) فبدت لهم من تحتها ملامح تلقي الرعب في القلوب، ثم انتضت سلاحها ببطء واستخفاف وصاحت بصوت صاعق قائلة: انصرفوا... فأغرب الفرسان من وجهها مذعورين وتغيرت أصوات التهديد في الحال إلى صيحات الابتهاج والإعجاب بشجاعة هذه السيدة الإنجليزية، وأخذ أزيز الرصاص يدوي حول رأسها من كل جانب، تشريفاً لها وتعظيماً لقدرها.

وما لبثت الحقيقة أن برزت أمامها، فلم يكن هؤلاء الفرسان المهاجمون سوى نفر من رجال القبيلة التي تحالفت معها السيدة، وأن الهجوم المصطنع لم يكن سوى حيلة دُبِّرت لاختبار شجاعتها وإقدامها. وقد انتهى النهار في صفاء وسرور كأنه مهرجان أقيم على شرف البطلة.

ومنذ ذلك الوقت تضخم سلطانها واتسع نفوذها على عقول القوم. وقد روت لي الليدي هستر هذه القصة بحماس شديد. وقد خلعت اليشمك بضع لحظات لتريني صورة واضحة عن التأثير الذي تحدثه ملامحها المخيفة إذا ما أزيح هذا الستار الكثيف عن وجهها.

أما فيما يتعلق بنظام حياتها الحاضرة فقد أخبرتني أنها بسبب خطاياها كرست جزءاً كبيراً من وقتها للتكفير عن ذنوبها تكفيراً قاسياً يستمر أعواماً طويلة، فلعل نكران الذات هذا لا يذهب عبثاً. وأضافت أن علوم الغرب ليست إلا أوهاماً وأباطيل، فأطباء

(*) اليشمك التركي هو الخمار.

Twitter: @alqareah

الغرب يقولون مثلاً أن شرب الحليب يكسب البشرة صفرة، وهاأنت ترى أن وجهي ناصع البياض رغم أن الحليب هو غذائي الوحيد.

أما امتناعها عن الغذاء العقلي فإنه لا يقل عن امتناعها عن الغذاء الجسدي. وقد قالت إنها لم تنظر في أي كتاب أو صحيفة. ولكنها تعتمد على الخدم في الحصول على المعارف السامية. وكثيراً ما كانت تقضي الليل ساهرة تناجي الأساتذة السماويين، ثم تلجأ إلى النوم ساعات النهار. وكانت تتكلم بلهجة يشوبها الاحتقار الشديد بالجهل المطبق المستحوذ على الأوروبيين المعاصرين. وبرهان ذلك أنهم لا يؤمنون بعلم الفلك وفنون السحر. ولقد أفرطت في بحث هذا الموضوع كأنها تريد أن تحملني على الاعتقاد بأن الرقى والتعاويذ طوع بنانها. ولكنها لا تلجأ إلى استخدام هذه القوى، فهي تعتبر اللجوء إلى مثل هذه الأعمال مبتذلاً لا استقامة فيه.

ثم خضنا في حديث العصا السحرية التي قيل إنها تكشف المعادن النفيسة، فروت لي النبية قصة لم تكن في صالحها وتخالف ادعاءها بأنها على معرفة تامة في هذا الفن ـ فن السحر ـ وأظنها قالت إن حوادثها وقعت لها قبل أن تتبوأ هذا المقام السامي في عالم الروح الذي تتبوأه الآن. قالت إن كنوزاً لا تقدر قيمتها كانت مخبوءة في جوار السويس وإن نابليون بما عرف عنه من شجاعة وإقدام قد أدخل يده في الكهف الذي يحتوي على الذهب المطلوب، ولكن سرعان ما ارتدَّت يده مشلولة. غير أن البطل الشاب لم يستسلم إلى الخوف بل لجأ إلى استعمال مدافعه، ولما خيف عليه من عجزه عن محاربة الجن توقف عن عمله وباء بالفشل والخيبة(*).

(*) جاء في عدد أيلول سنة 1926 من مجلة الكلية التي كانت تصدرها الجامعة الأميركية في بيروت ما يلي: بلغ مسمع الليدي هستر ستانهوب ابنة أخت اللورد شاتام بنت الوزير الإنكليزي الشهير، ونزيلة الشرق في ذلك الحين سنة 1815، أن في عسقلان كنوزا خفية. فسألت الباب العالي بوساطة سفير إنجلترا في الآستانة السير روبرت لستون أن يؤذن لها بالحفر والتنقيب. فأذنت لها الحكومة التركية بالحفر ←

Twitter: @alqareah

وبعد سنين حاول إبراهيم باشا أن يسطو على هذه الغنائم بالمدافع الثقيلة والتمائم الشريرة. ولكن حراس الجن جعلوا إبراهيم باشا يعود أيضا فاشلاً مدحوراً. وبعد هذين الحادثين مرت الليدي هستر بالمكان وشعرت بقوة هائلة تدفع العصا السحرية إلى يديها، فأمرت بإجراء الحفر في الحال فلم يعارض الجن. وفي نهاية الحفر وجدت الصندوق الواسع الذي يضم الكنز المشهود ولكن واأسفاه... لقد كان الصندوق مملوءاً بالحصباء وقطع الفخار... ثم تابعت حديثها فقالت: اقتربت الساعة التي يمكن فيها صاحب المعرفة الصحيحة من اكتشاف كنوز الأرض.

وقد تكلمت الليدي هستر عن إبراهيم باشا فقالت إنه كان قاسياً جريئاً، وإنه يعرف بعض الفنون السحرية الشريرة من النوع الذي تمقته كل المقت، وتزدريه غاية الازدراء، ودللت على ذلك بقولها: إن زوجة إبراهيم باشا قد ظنت أن ما أصابها من جنون نتج عن منظر الحديد والنار، وهي ترى زوجها بعد إحدى المعارك يحمل عمامته فيتناثر منها الرصاص مع ذرات الغبار...

ثم حدثتني عن المرض الذي أصابها أثناء إقامتها في «جونية» وكيف أقعدتها وطأة المرض مدة طويلة بلا حراك، وكيف تركها

← معلقة النفس بالمكاسب الطائلة، ووضعت تحت إمرة الليدي درويش مصطفى آغا. وفي غرة نيسان كان عند أطلال عسقلان مائة فلاح خلا الحاشية. وفي اليوم الرابع كشفوا عن تمثال مقاتل عملاق من المرمر، يبلغ طوله من الكتف حتى العقب ستة أقدام وتسع بوصات، بديع الصنع، قطع منه الرأس وإحدى الذراعين وأحد الفخذين. وخيل للدكتور شارل ميرون Ch. Myron الذي رافقها من إنكلترا ليعتني بصحتها أن هذا التمثال من عصر هيرودس. وفي اليوم التالي اكتشفوا صهاريج. وأخيراً تملكهم انفعال شديد إذ وجدوا جرتين من حجر سدتا بسدادات من حجر الصوان الأغبر فظن أن الكنز داخلهما. ولكن يا لخيبة الأمل، فقد كانتا فارغتين. وحاول الدكتور أن يخفف عن الليدي وقع الإخفاق بمدحه للتمثال وقيمته الأثرية. ولكنها حطمته تحطيماً لكي لا تقول ألسنة السوء أنني نقبت عن تماثيل لأجل مواطني. لا، إنني نقبت عن كنوز أعطيها للسلطان. وتعزت نوعاً ما بأن ذكرت أن الجزار ربما كان قد سبقها إلى التنقيب والعثور على هذه الكنوز تحت ستار البحث عن لوازم ينجز بها بناء جامعة في عكا.

Twitter: @alqareah

خدمها للأقدار فجاء اللصوص وهي على هذه الحال وسرقوا كل ما تملك ثم نزعوا سقف الدار وأخرجوا منها كل ما كانت تضم من فاخر أثاث وغالي رياش.

ويظهر من هذا أن الليدي هستر كانت تملك إلى ما قبل وقوع هذه الكارثة ثروة كبيرة من التحف الشرقية، فقد روت لي أن قواد الحامية العثمانية لجؤوا إليها مع زوجاتهم بأعداد كبيرة عندما سقطت عكا بأيدي إبراهيم باشا سنة 1832 ودمرها تدميراً تاماً. وكانت حاميتها تتألف من فرقة من الجنود الألبانيين، فقدمت لهم جميعاً الملابس الفاخرة والفراش الوثير. ولكن هذا الإحسان منها قد قوبل بالنكران، إذ لم تلبث أن ثارت ثائرة النسوة عندما أخذت كل منهن ترى في لباس الأخرى محاسن لم ترها في لباسها، فتنافسن وتخاصمن وذهبن بما ملكت أيديهن... أما الآن فقد تخلصت الليدي من هؤلاء الضيوف العتاة ولم يبق منهم إلا الجنود الألبانيون الذين استمروا تحت حمايتها حتى الآن.

حقاً لقد كان هذا الدير شبه المتهدم والذي يحرسه قلب سيدة إنكليزية، كان متمتعاً بالأمان فهو البقعة الوحيدة في جميع أنحاء سوريا وفلسطين البعيدة عن سلطة محمد علي وقائده الصارم. فقد أمر والي مصر إبراهيم باشا أن تسلمه السيدة هؤلاء الألبانيين، ولكن هذه السيدة كانت دائماً تجيب بلهجة الازدراء وعدم المبالاة، فكانت إذا ألح تدعوه كي يشّرف ويأخذ طلبته. ولما كان للخرافة أثر على إبراهيم باشا فقد أقعده ذلك عن التدخل في شؤون هذه النبية. وقد يكون خشي من مغبة التدخل والاصطدام مع سيدة قد يعرضه للهزء والسخرية. ومهما يكن فإن إبراهيم باشا لم يلبّ طلب والده والي مصر ولم يقتحم الدير. فبقيت تلك التلة المرتفعة وسط مقاطعة مزدحمة بالسكان، بقيت حرة مستقلة طوال حياة حفيدة اللورد «شاتام» وقد قيل إن محمد علي كان يردد قوله: «إن السيدة الإنكليزية قد جلبت لي من المتاعب أكثر مما جلبه عصاة سوريا وفلسطين».

Twitter: @alqareah

ثم أخبرتني الليدي أننا على أبواب زلزال هائل سيقضي على كل ما على وجه الأرض، وأن الأشخاص المقيمين في الشرق فقط هم الذين سيجنون ثمار النجاة في الحياة الجديدة التي ستعقب ذلك الحادث العنيف، ولذلك نصحتني أن أغتنم الفرصة الباقية من حياتي بأن أصفي أملاكي في بلاد الإنكليز الفقيرة الواهية وأن أسرع بتأمين مسكن لي في آسيا. ولما كنت أهم بتوديعها قالت: إذا كان ولا بد من ذهابك إلى مصر فيجب أن تعود مسرعاً إلى سوريا. فابتسمت في قرارة نفسي لهذه النبوءة التي أخطأت هدفي. فقد كنت عازماً أن أبحر من الإسكندرية إلى بلاد اليونان حالما أفرغ من زيارة الأهرام. ولكن من العبث أن يحاول المرء مقاومة ما خبأته له الأقدار. فقد صحت النبوءة، إذ ما لبث الطاعون أن تفشى، وخفت إن ذهبت إلى الإسكندرية أن أحجز في المحجر الصحي، لذلك رجعت إلى القاهرة ثم اضطررت إلى تغيير الطريق، فعبرت الصحراء مرة ثانية وعدت إلى جبال لبنان كما تنبأت بذلك الليدي «هستر» تماماً.

ثم أفاضت الليدي في الحديث عن الدين وأعلنت أن المهدي المنتظر سيعود إلى الأرض. وفي أثناء هذا الحديث الطويل كانت تحاول جاهدة أن تظهر ما لها من مقام في عالم الروح. وادعت فيما ادعته من معجزات وأعاجيب أن في مقدورها كغيرها من النساء قراءة أخلاق الرجال من وجوههم. ثم تمعنت في ملامحي وأعطتني النتيجة، تلك النتيجة التي سأبقيها طي الكتمان، ثم تكلمنا عن الأجناس والشعوب فبدت في هذا الموضوع مبهمة رغم اتساع معرفتها، وقد أشادت بذكر الفرنسيين القدماء. ولم تخف احتقارها للقول الذي يقوله الإنكليز عن أحد الأشخاص بأنه من عائلة عريقة.

وعندما كانت الليدي هستر تترك الأحاديث الدينية والنبوات تعود كغيرها من بنات جنسها، وكانت في شبابها من أشهر المقلدات وأن كل ما قامت به في حياتها من صوم ووحدة وغيرهما لم تؤثر على تلك القوة الطاغية فيها. وأول من وقع في تقليدها اللورد «بايرون»، لقد شاهدته على أثر عودته من الشرق، وأخذت تقلد

Twitter: @alqareah

لهجته وعاداته في صورة تثير العجب والتفكه. وقد أعجبتها شخصية الشاعر «لامارتين» فأخذت في تقليد صوته ولهجته أيضاً.

ويظهر أن الليدي كانت تحتقر من صميم فؤادها كل ما هو لطيف وظريف، فقد أخبرتني أن الخلق الصارم أشد تأثيراً في الشرقيين من أي خلق آخر. وأن ليس بين الشرقيين من له تأثير واسع كما يؤثر الضابط البحري الإنكليزي بطيبة قلبه وحسن خلقه.

ولم تنته زيارتي للسيدة إلا بعد منتصف الليل. وعندما غادرت مكاني وقفت وقفة جندي يحافظ على النظام كتلك التي وقفتها عندما دخلت عليها. وبينما أنا منصرف رمت قطعة القماش التي كانت على ركبتيها. وفي صباح اليوم التالي زارني سكرتير السيدة بعد تناول الفطور. وكان هذا السكرتير الرجل الأوروبي الوحيد الذي يقيم مع الليدي، باستثناء طبيبها، وكان على نقيض الطبيب، فإيمانه بالسيدة أوهى من خيط العنكبوت. ولعل ذلك يعود إلى القيود التي فرضتها عليه الليدي، فقد منعته من صيد العصافير، وأمرته أن يقتصد من تسليته. وقد دفعه ضعف إيمانه هذا إلى القول بأن الجيران كانوا يمقتون السيدة لتصرفاتها. ولست أدري إن كان لقول السكرتير هذا نصيب من الصحة. ولكن مما لا شك فيه أن الكره والحب والازدراء والاحترام في البلاد الشرقية صفتان كثيراً ما توجدان في قلوب الكثيرين نحو شخص واحد. والاعتقاد السائد بين هؤلاء القوم الذين يحيطون بالليدي في قوتها الخارقة وفي أخلاقها التي هي مزيج من الحزم والجبروت، مع وجود أولئك الألبانيين الأشداء الذين يحيطون بها قد يكون دعاهم أن يُظهروا لهذه الليدي هذا الاحترام والتبجيل.

إذا وصل أي شخص إلى مثل هذه المهابة في قلوب الشرقيين يسهل عليه الاستيلاء على غلة جاره ومواشيه ودجاجه وعسله، كل ما يملك، ما عدا زوجاته بالطبع، أي أن الشرقي إذا أحب شخصاً شاركه بكل ما يملك. ولم تقصر الليدي في الاستمتاع بهذا الحق، فقد كانت الخيرات تتوارد عليها من القرى المجاورة، كل قرية حسب قدرتها.

Twitter: @alqareah

ولم يقم الألبانيون بأي اضطراب أو إزعاج يدلل على طبيعتهم التمردية، ولعل ذلك يعود إلى خشيتهم من أن تسلمهم الليدي إلى إبراهيم باشا.

وبعد ظهر اليوم نفسه وصل إلى قرية «جونية» قبطان سفينة حربية إنكليزية فقبلت الليدي أن تقابله للأسباب التي حملتها على استقبالي. وقد تناولنا عشاءنا معا وقضينا سهرة امتدت حتى منتصف الليل، في أحاديث تناولت شتى المواضيع. وكان أهمها مواضيع السحر والسحرة.

ولما كنت مصمماً على مغادرة المكان مبكراً فقد ودعت الليدي التي أنهت كلماتها الوداعية بما سبق أن رددته من نصحي بالابتعاد عن أوروبا والعودة إلى الشرق، وقد تشددت في نقل ذلك لوالدي وأن أخبره أن الليدي نفسها هي التي نصحتني بهذا.

ومما لا شك فيه أن ادعاء الليدي، هذا السلطان الروحي، لم يكن ناشئاً عن الشعور بكبرياء، سداها الشراسة ولحمتها الفوضى، بحيث لا تبعد في شدتها وخطورتها عن حد الجنون. بل هو قوى الليدي العقلية الكاملة التي كانت تزجرها عن الإيغال في هذا الشعور النفاذ.

أما اعتقادها بالسحر والتنجيم فلم يكن ناشئاً عن شذوذ في التفكير وإنما هو انعكاس لتأثير المحيط الذي تعيش فيه. فقد قصرت اختلاطها على الدروايش الذين كانوا يقصدونها طامعين في إحسانها وكانوا يبادلونها الإحسان بالتعظيم والإكبار. يضاف إلى ذلك ابتعادها عن الكتب والصحف وعالم الفكر. مما حملها على الإيمان بكل قصة غريبة تصل إلى مسامعها.

ونحن في بلادنا لا نكاد نذكر جميل الصحف وما لها من أثر حميد في توجيه مختلف الطبقات، وخاصة ما يتعلق بالمعتقدات التي يتساوى فيها الحقير والعظيم وتجعلهم لا يعتقدون بخوارق الطبيعة من سحر وشعوذة. وما أبعد معتقداتنا عن معتقدات سكان مصر

Twitter: @alqareah

وفلسطين وسوريا الذين يعللون كل مظاهر الطبيعة حتى طلوع الزرع وإدرار الضرع إلى خوارق الطبيعة وفعل السحر. ومثل هذه المعتقدات التي تتغلغل في شعب جاهل فيرزح تحتها لا يمكن إنكار تأثيرها في شخص غريب يعيش بينهم ولا يسمع سواها.

Twitter: @alqareah

ملحق «1»

في سنة 1776 ولدت فتاة إنجليزية تنتسب من جهة الأب إلى لورد ستانهوب ومن جهة الأم إلى لورد شاتام. وكان لورد ستانهوب مشهوراً بلقب «اللورد الثائر» لدفاعه عن رجال الثورة الفرنسية وغلوه في الآراء الديموقراطية.

وكان لورد شاتام والد وليم بِت يضارع نابليون الذي ظل يعمل طوال حياته على مقاومة سياسة فرنسا وإخفاق خطط نابليون.

وكانت هذه الفتاة تدعى هستر ستانهوب وقد ورثت الغلو عن والدها والحصافة والاستقلال في الرأي عن جدها لأمها. وقد ماتت أمها وهي في الرابعة من عمرها وتزوج أبوها، فلم تأنس إلى عِشرة زوجة أبيها وهجرت البيت إلى منزل جدتها لأمها فبقيت هناك حتى ماتت جدتها. فانتقلت إلى منزل خالها وليم بِت رئيس الوزراء الإنجليزي. واحتكت هناك بأعاظم رجال إنجلترا ودهاة الساسة من إنجليز وأوروبيين، فعرفت شيئاً كثيراً عن مداوراتهم وختلهم وأدركت أكثر الأسرار غموضاً التي كانت تتخلل السياسة الأوروبية.

ومات خالها سنة 1806 وأوصى لها بمعاش سنوي يبلغ 1500 جنيه في العام. فتركت بيت خالها وذهبت إلى الأرياف حيث أقامت بضع سنوات.

ويقال إنها في الفترة التي قضتها في بيت خالها، وبعد ذلك في

Twitter: @alqareah

منزلها بالريف، عرفت جملة رجال من رجال إنجلترا الذين توددوا إليها وأحست بشيء من الحب نحوهم. وكانت تنوي أن تتزوج أحدهم. وحقيقة هذه المسألة لم تُعلم للآن. فإن هيئتها لم تكن مما يجذب الرجال لأنها كانت دميمة الخلقة. ويقال بالعكس فقد كانت جميلة، مديدة القامة هيفاء متناسبة الملامح، متناسقة التقاسيم، ولكن كان في سحنتها كثير من الرجولة والفتوة. فلم يكن يجرؤ على التحبب إليها إنسان.

وفي سنة 1810 مات أخوها الوحيد. وكانت قد كَرَّست حياتها لخدمته. فعظم عليها مصابه، فأرادت أن تخفف عن نفسها ألم هذا المصاب بالسفر في البحر إلى جبل طارق.

وسافرت بالفعل في تلك السنة. وكان يصحبها في سفرتها هذه طبيب ووصيفة وجملة من الخدم. فلما بلغت جبل طارق أخذتها النشوة بالرحلة فركبت إحدى السفن القادمة إلى الشرق، فزارت اليونان وتركيا ومالطة ومصر، وكانت جميع هذه البلاد داخلة في طاعة سلطان الأتراك في ذلك الزمن. وأصيبت سفينتها بكسر ولكنها استنقذت هي وحاشيتها، وكان أحد الضباط الأتراك عندما رآها قد فقدت ملابسها أنعم عليها بكسوته الحربية، فارتدتها ومن ذلك الوقت إلى يوم وفاتها في لبنان سنة 1839 لم تلبس ملابس النساء.

دخلت الإسكندرية وهي في لباس الضابط التركي وحملت وصيفتها على أن تفعل فعلها، فأطاعتها الوصيفة وهي مكرهة. ولم تمكث طويلاً في الإسكندرية، فإن روائح الشرق الذي أحبته وتعلقت به قد أخذت تجذبها إلى الأرض المقدسة.

فبرحت مصر إلى فلسطين وخلعت لباس الضابط وارتدت لباس المماليك «العمامة والقفطان والجبة والسيف المزركش وما إليها»، ورحلت من فلسطين إلى دمشق، حيث بقيت مدة ثم استأجرت جملة من العربان فصحبوها إلى تدمر مدينة الملكة زنوبيا «الزباء». وهناك جلست في ظلال هذه المدينة الدارسة فتوجها العربان ملكة

Twitter: @alqareah

على الصحراء. ثم رحلت إلى حماة، فأنطاكية. وكانت تبغي السفر منها إلى روسيا فظهر في ذلك الوقت طاعون منعها من ركوب البحر.

عادت سنة 1814 إلى دير مار الياس في قرية تبعد نحو 12 كيلو متراً من صيدا. ثم شيدت لنفسها حصناً في الجبل قريباً من هذا الدير، وصارت في ذلك الوقت تقيم فيه كأنها لم تعرف قط أوروبا. فكانت تدخن الغليون والنارجيلة وتربي الجياد وكان عندها أربعون عبداً وأمة. وكانت تمرنهم على التدريبات العسكرية. وذاع صيتها في الجبل وكان الناس يتقاضون إليها، وتسوي في دارها في الخلافات بين القبائل. وكان قطاع الطرق وأهل الشر يخشون بأسها. فقد كان يُقتل عندها من تثبت عليه الجنايات الكبرى. وكان ضمن موظفيها لحّاد. وبقيت في الجبل 25 سنة وهي قوة فعالة يحسب حسابها كل من له علاقة به من الدول. وكانت على الرغم من أنها إنجليزية ومن أكبر بيوتات الإنجليز تعاكس الحكومة الإنجليزية، وذلك لأنها أنزلت معاشها من 1500 إلى 1200 جنيه. وكانت أيضاً تكافح الأمير بشير الشهابي. وبلغ من عظم سلطانها ونفوذها أن إبراهيم باشا عندما أغار على سوريا طلب منها أن تقف على الحياد، وكانت تحب الدروز وتدافع عنهم.

كانت متعلقة بالخيول تربي جيادها وتبعث في طلب ما اشتهر منها. وكانت أيضاً متعلقة بالقطط وبتناسخ الأرواح والتنجيم والسحر. وقد زارها لامارتين الشاعر الفرنسي سنة 1832 وكانت إذ ذاك في شيخوختها، فقال عنها: إن لها شخصية مركبة، من الرفعة والشذوذ، خير لنا أن نسميها جنوناً من أن نحاول تحليلها.

وقد قالت هي عنه: إنه يحب التظاهر والتأنث ولا يبرح متعلقاً بكلابه يبحث على الدوام عن لفت الأنظار إلى خفة قدميه ولطافتهما. وهو يراوغ عندما يُسأل عن دينه، بدلاً من أن يجيب إجابة صريحة.

وكانت إذا زارها أحد تقعد معه فتكلمه وكأنها تخطب، وقد

Twitter: @alqareah

تقضي الليل كله معه في الحديث حتى يغلبه النعاس، فينام أمامها، على الرغم من رغبته في التيقظ.

ولما أسنّت جعل المرابون من سواحل الجبل يترددون عليها ويقرضونها الأموال وهي تبذر في الإنفاق ولا تحسب للمستقبل، حتى جاء يوم عجزت فيه عن الدفع، ثم حجز الدائنون على معاشها فقطعته الحكومة البريطانية عنها سنة 1838، فكتبت إلى الملكة فكتوريا ولورد بالمرستون رئيس الوزراء، تستنجد بهما وتناشدهما خدمة خالها بِت. فلم يرد أحد منهما عليها ولا اكترث لتوسلاتها. فحلّت بدارها الفاقة، فاستغنت عن عبيدها ولم يبق معها سوى خمسة من خدمها. وتناوبتها الأمراض وحطت عليها الشيخوخة. ولكنها مع ذلك لم تهدأ، فكانت تدس الدسائس للدول التي تكرهها، وحرضت الدروز على الثورة على ابراهيم باشا.

وفي سنة 1839 ماتت فذهب إليها قنصل إنجلترا في بيروت فوجد أن الخدم قد سرقوا أمتعتها وفروا، فأخذ جثتها ودفنها في حديقة قصرها في منتصف الليل.

وفي سنة 1911 تذكرت الحكومة البريطانية هذه المرأة فبنت لها ضريحاً.

Twitter: @alqareah

ملحق «2»

ملكة تدمر

منذ أكثر من مائة عام بقليل، توفيت في قرية «جونية» بلبنان سيدة من أشهر السيدات. وكانت تلك السيدة، إلى جانب ما تتمتع به من ذكاء مفرط، ابنة لورد إنكليزي وابنة أخت رئيس وزراء بريطانيا العظيم وليم بِت William Pitt، ولكنها رغم كل ذلك تركت محيطها الفخم الذي كانت تعيش فيه وآثرت أن تعيش وتموت بين عرب لبنان.

وكثيراً ما تصدر عن المجانين أقوال غريبة، ولكن لعل ما قاله عراف مجنون لليدي هستر ستانهوب من أندر ما تحقق من نبوءاتهم. فقد قال لها إنها سوف تتوج ملكة في المشرق.

ولعل الليدي ستانهوب، على الرغم من شدة تطلعها إلى القوة والسلطان، لم يخطر ببالها قط أن تتحقق تلك النبوءة، ولكنها تحققت. فقد اعتلت في شهر فبراير سنة 1810 مع طبيبها الخاص، ظهر سفينة حربية بريطانية كانت متجهة إلى جبل طارق، ولم تر بلادها بعد ذلك مرة أخرى.

وبعد أن سافرت عبر اليونان وتركيا وارتطمت سفينتها بصخرة بالقرب من جزيرة رودس، وصلت إلى مصر بعد سنتين. وكانت قد فقدت كل ملابسها بعد ارتطام السفينة بالصخرة حتى أنها لما قابلت محمد علي باشا والي مصر في سنة 1812 كانت ترتدي

Twitter: @alqareah

ملابس أحد الباشوات الأتراك. وظلت ترتدي ملابس الرجال منذ ذلك الوقت إلى أن توفيت بعد سبعة وعشرين عاماً.

وكانت لتلك السيدة جرأة الرجال، وكانت تمتطي صهوات الخيل مثلهم تماماً. وربما لم يخطر ببال محمد علي باشا عندما رآها وهي تقبل عليه مرتدية حلة رجل، مخترقة حدائق الحريم في قصر الأزبكية، بأنها ستصبح أعند خصم له أثناء غزوه لسوريا بعد ذلك بسنوات.

على أن محمد علي باشا أعجب كل الإعجاب بهذه السيدة الإنجليزية، فسمح لها بتفتيش جنوده وأهداها حصانين من أجمل خيوله العربية، بعد أن رأى براعتها في ركوب الخيل وهو تقدير قلما حظيت به امرأة من قبل.

سافرت بعد ذلك من مصر إلى مدينة يافا بفلسطين، حيث خرجت راكبة إلى القدس تحف بها كوكبة عظيمة من الحرس. وجرت العادة في ذلك الوقت أن يقدم كل مسافر يمر بقرية أبي غوش احترامه إلى شيخها. ولكن بلغ من إعجاب هذا الشيخ بتلك السيدة أن ذبح خروفاً وأقام لها مأدبة، وقام على حراستها بنفسه أثناء الليل.

وسبقتها شهرتها في جميع أنحاء فلسطين وسوريا، حتى بلغت مسامع الأمير بشير، أمير جبل لبنان، فبعث يدعوها إليه إلى زيارته في صيدا. ولم تكن دهشتها لتلقي هذه الرسالة بأقل من سرورها بها.

وكانت الليدي ستانهوب قد سمعت شيئاً عن ذلك الرجل الذي أطلق على نفسه لقب أمير الجبل، فسافرت في نهاية شهر يوليو لمقابلته في دير القمر عاصمة ملكه تحف بها حاشيتها.

ولم يكن من الصعب على الأمير أن يحتفي بضيوفه الأوروبيين، فقد كان من عاداتهم أن يطلبوا الإقامة في بلد من البلاد، وكان يظن عندما ودعها بإهدائها حصاناً عربياً مطهماً، أنه لن يراها بعد ذلك.

Twitter: @alqareah

ولكن كم كان مخطئاً في تقديره بل ولعله لم يخطر ببالها وهي تمر بقرية جونية وبديرها المخرب، الذي يتوج قمة جبلها الصخري الوعر، أن هذه القرية ستصبح في المستقبل الحصن الذي تعتصم به ضد ظلم الأمير وجبروته.

وكان الأمير بشير مجبولاً على المكائد والدسائس، اغتصب عرشه في أشد عصور سوريا اضطراباً، وكان مرهوباً من كثيرين، محبوباً من قليلين، ولكن لا أحد يثق به مطلقاً. وكانت له عادات محببة خدعت تلك السيدة الإنجليزية الذكية في أول الأمر.

وفي دمشق خطرت ببالها فكرة دخول مدينة تدمر، دخول الظافر المنتصر، وهي المدينة التي لم تطأها قدم أوروبية من قبل. ولكن مصاعب هذه الرحلة كانت عديدة، فقد كان السفر في الصحراء محفوفاً بالأخطار لضعف السلطة التركية وانتشار الحروب الوهابية، ولكنها كانت قد وطدت العزم على ذلك. وأخيراً سافرت إلى تدمر، تحت حماية «مهنا الفاضل» شيخ قبيلة عنزة. فقد ذهبت إليه دون حراس، مرتدية ملابس البدو البسيطة، وقالت له: أنا الآن في يدك، لقد رفضت قبول حراس من أتباعك وأتباعي لأثبت لك أني قد اخترت حمايتك ووثقت بك. فأعجب الشيخ بجرأتها وبسالتها وعبرت تحت حمايته الجبال إلى أطلال المدينة القديمة فكانت أول امرأة أوروبية تفعل ذلك. ولقد رحب بها السكان ترحيباً عظيماً انتهى بأن توجوها بإكليل من الزهور وشرعوا يهتفون قائلين «أيتها الملكة».

وهكذا تحققت نبوءة العراف المجنون، فقد صح ما قاله وتوجت ملكة في الشرق.

على أن تتويجها في أطلال مدينة تدمر كان شيئاً تافهاً، أقيم على سبيل الاحتفاء بها، ولم تصبح ملكة الريف وحامية الطريدين والمظلومين ومانحة الطعام واللباس والمحتاجين، وملجأ للمهدورة دماؤهم، إلا بعد أن استقرت في مار الياس بالقرب من صيدا ثم في تلال قرية جونية الحصينة.

Twitter: @alqareah

ولم يكن هناك ما يقلل من جرأة هذه السيدة الإنجليزية. فلما انتشر الطاعون في مدن سوريا أرسلت طبيبها الخاص لمعالجة أصدقائها العرب، أغنيائهم وفقرائهم على السواء ولقد أصيبت هي نفسها بهذا المرض الوبيل، ولم تكد تشفى منه حتى عادت إلى مكافحة الظلم والاستبداد بحماسة أشد وأقوى من ذي قبل.

وعندما اشتعلت نيران الحرب الأهلية بين الباشوات في عكا ودمشق، لم يكن منزلها في مار الياس، من الكبر بحيث يتسع لجميع اللاجئين الذين فقدوا منازلهم وكرومهم ولجؤوا إليها يطلبون المساعدة.

وفي سنة 1821 انتقلت إلى أطلال دير جونية الواقع فوق تل يشرف على واد ضيق في صميم لبنان، واعتصمت بذلك المكان متحدية الباشوات مثيري الحروب والذين لم ترضهم المساعدات التي كانت تقدمها للشاردين واللاجئين ولا السلطة التي أسبغتها عليها تلك المساعدات.

وكان في طليعة أعدائها الأمير بشير الذي تحالف مع عبد اللّه باشا خليفة الجزار والي عكا الثائر، ولكن بعد أن دحر الجيش التركي تلك الثورة، فَرَّ الأمير بشير إلى مصر والتجأ إلى محمد علي باشا. وكان هذا يطمح في غزو سوريا، ويود أن يحظى بمساعدة من الداخل، فسعى لدى الباب العالي حتى حصل على عفو عن الأمير بشير من السلطان. وافتدت الليدي ستانهوب باشا عكا نظراً لصداقتها لعمه.

وكانت طيلة الوقت تُحوِّل قرية جونية إلى قلعة حصينة فشيدت فيها أسواراً دفاعية، ومراكز استطلاع وممرات سرية في صميم الصخر، يستطيع أن يفر منها ضحايا الأمير إلى الأرض العراء.

ولدى عودة بشير من مصر نشبت حرب أهلية في الجبل وبلغ عدد المرضى والجرحى من المقاتلين الذين راحت الليدي هستر تعنى بهم أكثر من مائتين. فقامت الآن حرب علنية بينه وبين المرأة

Twitter: @alqareah

الإنكليزية وراح يضرب نطاقه حول قريتها التي اعتصمت بها، إلا أن خلصاءها من أهل القرى المجاورة سعوا إليها ليلاً بالطعام والماء. وكانت هذه المرأة المقدامة تأوي إلى فراشها ليلاً وصولجان عربي مدلى فوق رأسها، فلا تخشى بأساً بل تنام آمنة وادعة. وكان الأمير يبعث إليها بشتى أنواع الوعيد والتهديد كما ذبح رجالاً بالقرب من دارها لكي يفزعها ويحملها على الفرار، ولكن الليدي هستر ما كانت لتفعل ذلك، بل صبرت وصمدت إلى أن تدخل السلطان وأنهى حالة الحصار.

وفي أواخر عام 1831 قام محمد علي بغزو سوريا في هجوم مزدوج، بري وبحري، مسلطاً على عكا، وأبلى عبد اللّه باشا حاكم عكا «والذي كانت الليدي هستر قد افتدته» أيما بلاء، دفاعاً عن منطقته سبعة شهور. إلا أن السلطان لم يوفق إلى إنفاذ النجدات المسلحة، فسقطت المدينة في أيدي المصريين وهجر أمير الجبل بشير حليفه القديم، ولما أدرك أن الجيش المصري لا بد منتصر، باع استقلال شعبه دون أن يحرك ساكناً أو يشهر سلاحاً.

أما السيدة الإنكليزية فمع أنها لمست منافع إصلاحات محمد علي إلا أنها ظلت على ولائها لعبد الله، الذي طالما أولته عطفها ومؤازرتها. فمن قصرها الشامخ جعلت تتحدى الغزاة، وفَرَّ الجرحى من الجنود والنساء والأرامل المشردين إلى جونية، وظلت زهاء ثلاث سنوات تحدب عليهم وترعاهم وتسهر على صحتهم إلى أن تماثلوا للشفاء.

ولما هُزم جيش السلطان في معركة حمص لم يجرؤ إلا شخص واحد على مقاومة أوامر المنتصر إبراهيم باشا بأن لا يقدم طعاماً أو شراباً إلى الأسرى وهم يمرون من صيدا. وكان هذا الشخص هو الليدي هستر، إذ قدم خدمها لأولئك الأسرى طعاماً وشراباً بينما كانوا محتشدين في سوق صيدا تلفحهم الشمس بوهجها المحرق.

ولم يجد إبراهيم باشا فاتح سوريا حيلة في وجه ذلك التحدي

Twitter: @alqareah

الباسل. وعندما رفضت السيدة الإنكليزية أن تزوده بأسماء ضيوفها طلب المساعدة من السلطات البريطانية، ولكن هذه السيدة ضربت باحتجاجات هؤلاء عرض الحائط، واستمدت من تفانيها في خدمة أولئك الذين أنقذت حياتهم قوة مكنتها من حكم مملكتها الصغيرة حول جونية دون منازع.

وفي عام 1836 فتح الأمير بشير بلاده للغزاة المصريين، وداهم سكان الجبل بينما كانوا عُزّلاً منهمكين في الحصاد، فلم يقووا على مناهضة الجيش الفاتح، وإن كانوا من أشد الرجال بأساً وأقواهم جناناً. وقد أدهش ذلك العمل حتى إبراهيم باشا، إذ صرخ قائلا «الم يطلق أشداء لبنان رصاصة واحدة علينا».

وهكذا عندما حاول إبراهيم باشا عام 1837 فرض التجنيد العسكري على رجال الجبل كان المقاتلون الأشاوس مستعدين للثورة وشق عصا الطاعة.

ولما فعلوا ذلك أثنى محمد علي على تلك السيدة الإنكليزية العجوز التي كانت تُحتضر في قلعتها اللبنانية شاكية داء السل، فقال:

«إنها بمثابة النار من الموقد. فقد سببت لي هذه السيدة الجليلة قلقاً واضطراباً وألماً يفوق ما لقيته من أهل فلسطين وسوريا معاً».

Twitter: @alqareah

ملحق «3»(*)

الليدي وحكام المشرق العربي

لا نغالي إذا قلنا إن الليدي هستر ستانهوب هي أشهر امرأة عرفها التاريخ الحديث شذوذاً، على كثرة ما أنجبت الطبقة الأرستقراطية البريطانية من شاذات وشاذين في القرن التاسع عشر، وليدي هستر ستانهوب هي من هذه الطبقة في الذروة.

فهي الابنة الكبرى لإيرل ستانهوب، وحفيدة لورد شاتام وابنة أخت وليم بِت رئيس وزراء بريطانيا المشهور.

ولدت هستر في قصور العز والترف في الثاني عشر من آذار 1776 وتوفيت على سفوح لبنان فقيرة، وحيدة، في الثالث والعشرين من حزيران 1839. وخلال سنوات عمرها التي نيفت على الستين كان ما عرف عنها من شذوذ كافياً لأن يحيلها إلى أسطورة، لأن مثل هذه الحياة يصعب تصورها في الواقع.

وقد عُرفت هستر في شبابها الباكر في وسط لندن الأرستقراطي بحيويتها الدافئة، وجمالها واندفاعها. وعندما استقرت سنة 1803 في 10 داوننج ستريت، مقر خالها رئيس الوزراء الذي لم يكن متزوجاً لتكون مشرفة على البيت الكئيب

(*) استعرض الدكتور محمود السمرة في العدد 99 من مجلة العربي الصادر في شباط سنة 1967 كتاباً صدر باللغة الإنكليزية. وفي هذا الاستعراض وصفٌ حي لهذه البرهة من تاريخ هذا الجزء من العالم العربي. لذلك فإني أنقله بإذن من كاتبه الفاضل.

Twitter: @alqareah

بالبهجة والفرح والحفلات التي لا تنقطع، نسي رئيس الوزراء بقربها حزنه، وقد كافأتها الدولة على هذا بأن خصصت لها، بعد وفاته مرتباً سنوياً قدره 1100 جنيه إسترليني، يدفع لها مدى حياتها.

وبعد وفاة خالها وليم بِت سنة 1810 قررت أن تقوم برحلة إلى الشرق العربي، ولكنها كانت رحلة لم تعد منها إلى وطنها أبداً، فقد استهواها شرقنا، فأقامت فيه إلى أن وافتها المنية.

وقد كتبت عن ليدي هستر ستانهوب الكتب الكثيرة، ومن أشهرها مذكرات ليدي هستر ستانهوب، ثلاثة مجلدات بقلم طبيبها الخاص ميرون «Myron»، نشرت سنة 1845. ثم أصدر هذا الطبيب نفسه ثلاثة مجلدات أخرى بعنوان «رحلات الليدي ستانهوب» سنة 1846. وآخر ما صدر عنها هذا الكتاب الذي نقدمه، ومؤلفته جون هسلب من مواليد سنة 1911، وهي صحافية كثيرة التجوال، ومن أشهر كتبها كتاب «السلطان» وهو عن السلطان عبد الحميد الثاني سلطان الإمبراطورية العثمانية.

وهذا الكتاب حافل بالطرائف، ويتميز بأسلوب رشيق، وعرض مغر بالقراءة. ومع هذا فإن فيه عيوبا كثيرة منها الخطأ الفاحش في إيراد التعبيرات العربية وفهمها، وجهلها بالأسماء العربية وصدورها عن مفاهيم تبعدها عن الموضوعية العلمية.

وفي حديثنا عن هستر ستانهوب سنكتفي بالوقوف عند ذلك الجزء من حياتها الذي يبدأ بوصولها إلى أرض مصر، وينتهي بوفاتها في جونية لبنان.

في شهر أيار من سنة 1812، استقبل محمد علي بقصر القلعة هذه الفتاة الإنجليزية الفارعة الطول، الزرقاء العينين، وقد دخلت عليه بلباس نبيل تركي، ولما لم تكن أرض القصر قد جفت عنها دماء من سُفك دمه من المماليك. وقد أحسن محمد علي استقبالها

Twitter: @alqareah

لأنها ابنة أخت وليم بِت وحفيدة لورد شاتام، ثم زاد في إكرامها لإعجابه بشخصيتها، حتى أنه أقام عرضاً عسكرياً خاصاً لتشهده. وفي هذا الحفل قدمت هي نفسها عرضاً دل على براعتها في ركوب الخيل، وبلغ من إعجاب محمد علي بها أن أهداها حصانين من خيرة خيوله الأصيلة.

ومن القاهرة كتبت إلى أحد أصدقائها تقول: «لقد كان محمد علي حفياً بي، ولم يكن يستقبلني إلا واقفاً. وقد سمح لي أن أزوره متى أردت، ولم يرفض لي طلباً طيلة إقامتي في ضيافته، حتى أنه سمح لي أن أزور أرامل المماليك الذين قتلهم، عندما طلبت منه ذلك».

وبعد شهر من إقامتها بالقاهرة، غادرت هي وحاشيتها إلى دمياط، ومن هناك استأجروا قارباً نقلهم إلى يافا، وفي يافا كان في استقبالها حاكم المدينة والمعتمد البريطاني. وبعد استراحة قصيرة غادرت إلى القدس عن طريق رام الله، على رأس قافلة من أحد عشر جملاً محملة بالأمتعة وسبعة من الخدم، ومملوكين، وعدد من الجنود لمرافقتها وحراستها.

وفي الطريق إلى القدس قابلت الشيخ أبو غوش الذي احتفى بها وبالغ في الاحتفاء عندما عرف أنها قريبة سير سدني سميث، الذي كانت له معه مراسلات، عندما كان يحاصر عكا وانتصر فيها على قوة نابليون. وهنا عادت الذاكرة بهستر إلى تلك الأيام، يوم كانت ترتاد بصحبة قريبها سدني سميث حفلات الطبقة الراقية في لندن، إنه الآن أميرال في البحرية. وإمعاناً في الإكرام أصر الشيخ أبو غوش على أن يرافقها مع عدد من عشيرته إلى القدس.

وفي القدس قابلت هستر إسماعيل بك المملوك الذي استطاع أن يقفز بحصانه من فوق أسوار قلعة القاهرة، فكان الوحيد الذي نجا من المصير الذي حل برفاقه على يد محمد علي. ومن أجله كتبت إلى صديقها السفير البريطاني في اسطنبول ترجوه أن يتوسط لدى السلطان من أجله.

Twitter: @alqareah

وعادت هستر إلى عكا، ومنها إلى صور، فصيدا. وفي صيدا وجدت رسالة من الأمير بشير الشهابي تدعوها لزيارته في بيت الدين.

وفي التاسع والعشرين من شهر تموز كانت هستر على رأس قافلتها المكونة من اثنين وعشرين جملاً، وخمسة وعشرين بغلاً، وثمانية خيول تغادر صيدا في طريقها إلى دير القمر، وفيها قصر الأمير بشير. وهناك أقامت في ضيافته شهراً، وكان الأمير في الخمسين من العمر، فارع الطول كث اللحية أنيقاً.

وبعد أن جابت أرجاء لبنان، واتصلت برجالاته، قررت السفر إلى دمشق، ومنها بدأت اتصالاتها ببدو الصحراء، وعقدت معهم صداقات، وكان المال يسيل بين أصابعها كالماء. وفي حياة هستر ستانهوب الكثير من الأحداث التي تدل على أنها كانت في مهمة سياسية، تستطلع فيها أحوال هذه البلاد التي كانت بريطانيا تطمع في سلخها عن أملاك الدولة العثمانية، والسيطرة عليها، لأن حملة نابليون على مصر علمتها أن طريق الهند لن يكون في أمان ما لم تسيطر على الأرض الواقعة على ضفتي خليج السويس أي مصر وبلاد الشام، وهذا ما فعلته فيما بعد.

وفي سوريا قابلت كثيرين من الفرنسيين من عيون نابليون، واتصلت بأبرزهم وأخطرهم شأناً، وهو الفرنسي لسكاريس «Lascaris» واستمالته ليعمل جاسوساً للإنجليز على الفرنسيين، وأجرت له مرتباً شهرياً. ولكنها اكتشفت بعد سنوات طويلة أنه كان يخدعها، وأنه كان في الواقع يعمل من أجل مصالح فرنسا، في الوقت الذي كان يتقاضى فيه راتباً من الإنجليز.

وقامت هستر برحلة إلى تدمر أبدت فيها كثيراً من ضروب الشجاعة واتصلت بشيوخ القبائل في بادية الشام، ولم تبخل عليهم بالمال، فكانت بعملها هذا أول امرأة أوروبية وطئت قدماها أرض مدينة زنوبيا التاريخية.

Twitter: @alqareah

وعادت من رحلتها لتجد أن الطاعون قد انتشر في المنطقة الساحلية الممتدة من عكا إلى جنوب اللاذقية، فتوجهت إلى اللاذقية، وقضت الصيف هناك. وهنا حدث لها حادثان كان لهما أبلغ الأثر في حياتها. أولهما عودة حبيبها «بروس»، الذي كان مرافقاً لها منذ خروجها من بريطانيا، إلى بلاده. وثانيهما امتداد الطاعون إلى اللاذقية وإصابتها به، وعندما شفيت منه، بعد أن كاد يودي بها، كان قد ترك آثاره في عقلها، وفي جسدها. إذ بعد إبلالها من مرضها أخذت تصدر عنها تصرفات فيها شذوذ تدل على أن قواها العقلية لم تعد طبيعية، كما أن رئتيها ضعفتا، فكانت بين حين وآخر تنتابها فترات من السعال الشديد. ولكن هذه التصرفات الدالة على الجنون لم تكن في رأي بعض من كتبوا عنها سوى ستار لجأت إليه لتخفي حقيقتها. والأرجح أن هذا الرأي هو الأقرب إلى الواقع.

وفي اللاذقية قررت هستر أن هذه البلاد هي البلاد التي تحب أن تقضي حياتها فيها، وأخذت تفكر في شراء بيت يكون سكناً لها، فحط بها خيالها عند بيت أعجبها أثناء تجوالها في مار الياس، على سفح الجبل المطل على البحر المتوسط في لبنان، وهكذا كان. ولكنها بعملها هذا أثارت شكوك الأمير بشير الشهابي، الحاكم الذكي، ولكنه لم يستطع عمل شيء، والسفير الإنجليزي في اسطنبول يحميها.

ومن بيتها في مار الياس، حيث كانت تعيش كملكة غير متوجة، استطاعت أن تثير اهتمام السلطان نفسه. إذ أرسلت إليه رسالة تقول فيها إنها وقعت في رحلاتها على مخطوطة ثمينة اشترتها بمبلغ كبير، وفي هذه المخطوطة وصف لكنز عامر بالذهب والأحجار الكريمة في مدينة عسقلان. وصدق السلطان هذه الدعوى، وأرسل أحد كبار رجال الدولة في اسطنبول إلى مار الياس، ليذهب بصحبتها ويضع تحت تصرفها كل ما يلزم للبحث عن الكنز. وهكذا سارت هستر محاطة بكل مظاهر الإجلال تطوف في فلسطين، تنفق من مال السلطان، وتتمتع بحمايته، إلى أن وصلت إلى عسقلان في

Twitter: @alqareah

صيف سنة 1815، وبدأت الحفريات التي امتدت إلى أسبوعين، وجُمع للعمل فيها مائة وخمسون من الفلاحين يعملون بالسخرة.

ولما يئس الجميع من العثور على الكنز أمرت هستر بالتوقف، واسترضت كل من كان في الركب ابتداء من ممثل السلطان إلى أقلهم شأناً، بالمنح السخية التي كانت متفاوتة تفاوتهم في المناصب. أما السلطان في اسطنبول فلم يأسَ على شيء، لأنه لم يخسر شيئاً، إذ أن التكاليف كلها كان يقوم بها ولاة الولايات.

وأثناء توقف هستر في حيفا، حدث حادث غريب، فقد دخل عليها خيمتها إنسان رث الثياب، وقدم نفسه لها بأنه كان أحد ضباط سير سدني سميث، ولكنه تخلف عن الأسطول، وانقطع لدراسة النجوم وقراءة المستقبل في جبل الكرمل. وتدليلاً على قدرته في قراءة النجوم أخبرها أنه في الساعة التي يقف فيها أمامها هرب نابليون من جزيرة ألبا. وتقول الرواية إنه بعد أن وصلت أخبار هرب نابليون من ألبا كان يوم هربه موافقاً لما قال. رافق هذا الضابط هستر في عودتها إلى بيتها في مار الياس، وبقي مقيماً فيه إلى يوم وفاتها.

والقارئ لمثل هذه القصص يدهش للطرق التي كانت تلجأ إليها الدول الأوروبية الكبرى لكي تملأ بلادنا بعيونها، بحيث لا يثيرون ريبة السلطة الحاكمة.

وعادت هستر إلى بيتها في مار الياس، وبدأت فترة جديدة من حياتها، انقطعت فيها عن الرحلات لأنها أقامت لها عيوناً في كل مكان من بلاد الشام، يكفونها مؤونة الانتقال. وكان بيتها دوماً غاصاً بالعديد من الوافدين عليها من شتى أطراف البلاد الشامية، ينقلون إليها الأخبار، ويقبضون منها المال.

وهنا قَصَّت شعرها، وأخذت تقضي الأيام والليالي تستقبل وتودع زوارها، والشيشة لا تفارق يدها. وأقبلت على دراسة النجوم وقراءة الكف لكشف حجب المستقبل، وأصبح هذا الموضوع الذي لا

Twitter: @alqareah

تمل التحدث فيه إلى زوارها الذين لم تكن تترك لهم فرصة للتحدث. وفي ليلة كانت تسهر وحيدة مع طبيبها الخاص، فاستهواها الحديث عن النجوم والكف ساعات، إلى أن أغمي على الطبيب المسكين الذي أرهقه الإنصات.

وفي كانون الثاني 1820 وهستر في الرابعة والأربعين من العمر، وقعت في غرام شاب فرنسي مغامر، حَلَّ عليها ضيفاً، لأنها رأت في ملامحه ما أعاد إلى خيالها صورة الجنرال مور، أول من أحبت، والذي قتل في إحدى المعارك. لقد تصورت هذا الشاب حبيبها يعود إلى الحياة، وكان هذا الشاب مسرفاً في كل شيء إسرافاً قضى عليه بعد سبعة شهور من لقائه بها، فحزنت عليه حزناً شديداً، ودفنته في حديقة البيت. وعندما انتقلت من بيتها في مار الياس لتسكن في جونية، نقلت عظامه معها، ودفنتها في البيت الجديد، وأوصت أن تُدفن بجانبه بعد وفاتها.

وطلباً للتغيير، أو لخطة لا ندريها، تركت هستر بيتها هذا، لتقيم في بيت اشترته في جونية على صخرة مشرفة على البحر، وفي هذا البيت قضت آخر ثماني عشرة سنة من حياتها. وكانت التجاعيد قد أخذت تظهر على وجهها، وكانت هي حساسة بالنسبة لها، لدرجة أنها لم تعد تستقبل زوارها من الأوروبيين إلا ليلاً، وفي غرفة باهتة النور.

وهنا في جونية اشتد الخلاف بينها وبين الأمير بشير الشهابي الذي كان يشك في تصرفاتها وصِلاتها، ولكن رسولاً من السفير البريطاني في اسطنبول وصل إلى الأمير بشير، فوضع حداً لهذا النزاع.

لقد بلغ نفوذها إلى حد أن يحتمي ببيتها الخارجون على السلطة، فلا يستطيع أحد الوصول إليهم، وعندما احتل إبراهيم باشا بلاد الشام كان الفارون منه يلجؤون إليها فتحميهم، ولا يقدر أحد أن ينال منهم.

Twitter: @alqareah

وقد شهد بيت «الست» كما كانوا يسمونها لقاءين تاريخيين مع أديبين من أشهر أدباء أوروبا، هما الشاعر الفرنسي المشهور «لامارتين» والكاتب الإنجليزي «كينغلك».

وفي شهر أيلول من سنة 1832 حط الفرنسي دي لامارتين في ميناء بيروت، وكانت المدينة بيد إبراهيم باشا. ومن هنا كتب إلى ليدي ستانهوب رسالة يقول فيها:

«سيدتي..

أنا مثلك غريب هنا.

وأنا مثلك جئت إلى هذه البقعة من الدنيا أبحث عن الجمال. جمال الطبيعة، وجمال الماضي التاريخي. فإذا سمحت لي بمقابلتك أسعدتني لأنني أكون بهذا قد حققت أمنية طالما راودتني، وهي أن أرى رائعة من روائع الشرق طالما سمعت عنها في وطني».

وكان اسم لامارتين ملء الأسماع، وعلى كل لسان في أوروبا، ولكن «الست هستر» لم تكن قد سمعت به. ويصف لنا لامارتين تلك الليلة التي قضاها في جونية فيقول: «واستقبلني الخدم عند الباب، وقادوني عبر ممرات كثيرة، ثم استقبلتني فتاة سرت وراءها إلى غرفة شبه مظلمة، جلست فيها سيدة ذات ملامح أرستقراطية لم أكن أتبينها إلا بصعوبة. وكان يبدو عليها أنها في نحو الخمسين من العمر». وبدأ الحديث بينهما فصارحته بأنها لم تسمع باسمه قبل اليوم، وإن كانوا قد قالوا لها عندما قرأت رسالته إنه مشهور جداً. وقضيا الليلة إلى الصباح، وعندما غادر الشاعر الشاب بيت الست كان يحس أنه قضى ليلة من أمتع ليالي حياته، كما اعترف بذلك في كتابه «ذكريات من الشرق».

وفي هذا الكتاب يعلق على ما شاع من أن هستر ستانهوب فيها ضرب من الجنون، فيقول: «ليست ليدي هستر مجنونة، فعيناها الذكيتان اللماعتان ليستا عيني امرأة بها مس. وحديثها رغم تشعبه، وغرابة الموضوعات التي تطرقها، حديث امرأة تسيطر على قواها

Twitter: @alqareah

العقلية. وفي رأيي إن ما يصدر عنها من تصرفات أو أقوال شاذة، إنما هي تصرفات وأقوال مدروسة، لغاية في نفسها. أما النظر في النجوم وقراءة الكف، واستطلاع الغيب، فهي عندي أول من لا تؤمن بها».

وفي أواخر خريف سنة 1835 زارها كينغلك، وترك لنا وصفاً رائعاً لهذه الزيارة في كتابه المشهور «إيوثن» (Eothen). وعندما كتب لها من بيروت قدم نفسه لها بأنه ابن صديقة طفولتها، وأعز صديقات صباها. فاستقبلته، وبالغت في إكرامه، وبقي في ضيافتها مدة يومين، وما كتبه عنها في كتابه يؤكد ما قاله لامارتين من أنها حقيقة أبعد ما تكون عن الجنون.

وفي الثالث والعشرين من حزيران 1839، وبينما كان الفلاحون في القرى المحيطة ببيت ليدي هستر ستانهوب منتشرين في الحقول، مشغولين بالحصاد، سرى نبأ وفاة الست، وأعلنته أجراس الكنائس. فرددت صداها وديان الجبال. وحمل خدمها جثمانها مجللاً بالعلم البريطاني، وشارك القناصل الأوروبيون في دفنها بقرب حبيبها الشاب الفرنسي حسب رغبتها.

Twitter: @alqareah

قدس الأقداس

سافرت ومعي خدمي يسيرون من خلفي ومن أمامي على بعد خطوات مني ولم يكن بينهم من يؤنس وحدتي ويخفف غربتي ويشحذ فكرتي. لذلك أرخيت لنفسي العنان وأطلقت لها مجال الأحلام وأخذت أتلهى بالنظر إلى جمال الأمكنة التي أمر بها وأستنشق عبير أزهارها وأتنسم نسيمها العليل وهواءها البليل، وكنت أهتز على سرج حصاني كالثمل وأشعر أنني كالطائر الغرد بين الأفانين يود أن يحلق في أجواء الفضاء.

فإذا مللت ذلك أغمضت عيني وعدت إلى الأحلام ألتذ باسم فلسطين الحبيبة وتاريخها المجيد وما شهدته عبر الأجيال من أحداث، فأجد في كل ذلك متعة عميقة تبعد السأم عني وتساهم في أنسي، حتى عبرت سهل شارون ودخلت بين تلال الجليل. وقبيل الغروب وجدتني أسير بين جبلين يضمان وادياً ضيقاً يطبق على مجموعة من الأبنية الكالحة تظهر كأعشاش الطير في حضن الجبل، حتى لاحت لنا من بعيد مئذنة الجامع تلمع فوق هلالها النحاسي آخر خيوط الشمس الذهبية. وقد هلل لهذا المنظر «دليلي» الشريف وبقية رجاله المسلمين. هذه المئذنة الإسلامية تقوم في وسط قرية الناصرة المسيحية التي كستها أردية المساء ألواناً باهتة.

وتوجهت تواً إلى الكنيسة الكاثوليكية العظيمة بجانب دير اللاتين وهي الكنيسة التي تحتوي على قدس الأقداس أو المكان الذي كانت تقيم فيه السيدة العذراء، هذا المكان المقدس ليس إلا

Twitter: @alqareah

غاراً طوله عشرة أقدام وعرضه مثل ذلك، يهبط الزائر إليه بدرج وقد زين داخله بزخارف فنية. يرى الزائر عن شماله عموداً من الجرانيت معلقاً من الكهف إلى ارتفاع بضعة أقدام من الأرض وقد قام من تحته عمود آخر من الأرض كأنه يحاول أن يصافح أخاه. ولكن ليس بين العمودين إلا فسحة لا تزيد عن قدم واحد. ويظهر أنهما كانا عموداً واحداً توكأ عليه الملاك عندما بشر السيدة مريم العذراء بطهارتها وقداستها. وبالقرب من المذبح تبدو العذراء راكعة على ركبتيها.

هناك في ذلك المكان ذكرت أني عندما كنت في ريعان الصبا علمني فنانو إيطاليا وهم عباقرة الجمال الساحر، وعندما حاولت أن أتبين الصور التي أراها في هذا المكان المقدس والتي كنت أتوق لها أن تكون من آيات الفن الخالد، لم تكن عيناي لتقعا إلا على صور باهتة قاتمة لا أستبين شيئاً منها. وعندما أعياني البحث في أن أرى ما قد يشبع نهمي الفني صحت أكثر من مرة «يا مريمتي». وقد شحذ الصوم عقلي وأخذ يسمو بي من هذه الدنيا إلى العالم العلوي، ولكنه أفسد عليَّ قوة التمييز بين الحق والباطل، كما أضعف قوتي على الاختيار. ومن شدة صومي وطوله انتابتني حمى من الجمال والحماس والإخلاص لأم المسيحية ومليكتها. وأصبحت أطبق كل ما يقوله الكاهن تطبيقاً عميقاً وكنت أتبعه متئداً في مشيتي ومطرقاً برأسي إلى الأرض، لا ألتفت يمنة ولا يسرة. وقد قام الكاهن المسؤول بخدمتي خير قيام، فقادني إلى غار العذراء بهدوء ودخلناه بخشوع وقد أحسست بامتزاج الهواء الرطب بلهب الشموع التي تفوح منها رائحة البخور فتشرح الصدر. ولا تكاد لثقلها تدخل إلا بكثير من الجهد والإعياء.

كانت العذراء راكعة صامتة خاشعة. وقد حاولت جهدي أن أستعيد في هذه اللحظة صورة من صور العذراء التي تخيلها الفنانون، ولكن جميع هذه الوجوه التي رسمتها يد الإنسان خبت وتضاءلت. حتى لم يبدُ لي واحد منها وأنا خاشع في قدس الأقداس.

Twitter: @alqareah

ولكن أمرك مطاع أيها الدين، فقد طلبت مني أن أخاف اللّه. وأن أكون تقياً في غير امتناع عن الحب. لقد أمرني الدين، وما اعتاد عليه أهل الدين، أن أستمع بخشوع، وأن ألثم الصخرة التي أمسكت بها العذراء. وقد خيل إلي وأنا ألمس ثوبها الدافئ العتيق أن نشوة انتابتني أزالت عني الحمى، انتصبت واقفاً وأنا أشعر بأنني صحيح معافى، وقد تمثل العالم الدنيوي أمام ناظري شيئاً محبباً وأمراً مغرياً. ولفت نظري الراهب الصالح وقد وقف أمامي يتلهى بمفتاحه بين أصابعه وليتصبر على استغراقي الطويل وتجلياتي المبهمة، ولما نهضت قادني إلى خارج الكنيسة وهو يحدثني عن غرفة الطعام بالدير وعن الوجبة القادمة، فأصغيت إليه بانتباه وسرور.

رهبان فلسطين

عندما تعود إلى فلسطين ستجد بعض النبيذ اللبناني المعتق لتشرب نخب رهبان الأرض المقدسة، وتسكب بعضه على الأرض إكراماً لهم على ما يستحقون. وبالرغم من أن هذا القطر المسكين يعيش وكأنه في عالم الأموات إلا أننا سنشرب نخب كل راهب منهم داعين لهم بطول العمر والحياة الصالحة. إن السائح الذي ينسى واجبه نحو هؤلاء القديسين الأطهار على الأرض لجاحد منكر لفضلهم على المسيحية وعلى ما يقدمونه في تلك الأديرة الوديعة الهادئة من خدمات للضيوف، ومساعدات للمحتاجين، زيادة على عصير عنبهم المبارك في هدوء واطمئنان. نعم يا صاحبي إيليوت «Eliot»(*) ستملأ كؤوساً حتى تبدو وكأنها كؤوس العنبر وتشربها مترعة نخب ضيفنا في فلسطين.

إن الديانة المسيحية تبيح شرب الخمر وليس بين رهبان فلسطين كلها من تمسّك بهذا الحق بشدة، ويُقبل عليه ويغالي فيه، كما يفعل رهبان دمشق، ولا يعود هذا إلى أن رهبان دمشق

(*) إيليوت واربورتن صاحبه الذي كان يرسل إليه هذه الرسائل.

Twitter: @alqareah

مسيحيون متحمسون أكثر من رفاقهم في الأرض المقدسة، بل يعود إلى أن الخمرة عندهم أجود مما هي عند غيرهم. فلما كنت في دمشق نزلت في دير الفرنسيسكان. وبعد وصولي بقليل سألت أحد الرهبان عن الأماكن التي تستحق المشاهدة. وعنيت بهذا القول الأماكن التي تباركت بزيارة الرسول بولس إبان نشاطه ومخاطراته. فأجاب الراهب الصالح قائلاً: ليس في دمشق كلها ما يستحق المشاهدة أكثر من أقبيتنا. وقد أشار إلي أن أسرع في ذهابي معه وأمتع ناظري بالكنز السائل الذي خبأه هو وصحبه تحت الأرض. ولم يكن هذا الكنز من كنوز البخلاء التي يحرصون على إخفائها في حرز حريز، فلا تصلها أيدي الناس، بل كان هذا الكنز السائل من كنوز الكرمة، يتصاعد كل يوم بل كل حين من زوايا القبو المظلم، تحت أرض ذلك القصر، يتصاعد ليحمّر أدمغة الرهبان. ويحيي فيهم النشوة واللذة. هنيئاً لهؤلاء الرفاق الأعزاء، فلقد كانت ضحكاتهم تتجاوب أصداؤها عالية، مرهفة في جوانب ذلك المكان المهيب، كما كانت أعينهم تشع بأنوار الفرح والحبور، ولم تعد طيالسهم الصوفية الثقيلة تعيق سيرهم وخطوهم أكثر مما يعيق الشاش الرقيق راقصة المسرح عن قفزاتها ورقصاتها.

لعلك قبل هذا كنت تتخيل هؤلاء الرهبان قد حبسوا أنفسهم في هذه البيوت المقدسة بدافع الحماس الديني والرغبة الملحة في الانقطاع إلى العبادة، في بلاد كانت هي التربة الأولى لبذور المسيحية الصالحة. إن هذا التصور لا يمكن أن ينطبق إلا على رهبان الكنيسة الأرثوذكسية. أما رهبان الأديرة اللاتينية فهم على الغالب أفراد من طبقة الفلاحين من إسبانيا وإيطاليا قبعوا في هذه الأديرة القصية عن أوطانهم. فهم وهذه حالتهم لا يختلفون عن قوات زاحفة تدب في بقعة راكدة. وأعتقد أن أكثر هؤلاء الرهبان يسلكون أحسن السلوك ويحافظون أتم المحافظة على القيام بواجباتهم الدينية.

Twitter: @alqareah

في الجليل

لم يعرف الشريف ولا أحد من معاونيه الطريق التي نويت أن أسلكها من الناصرة إلى بحيرة طبريا، ومن هناك إلى القدس، ولذلك اضطررت أن أضيف شخصاً آخر إلى حاشيتي كدليل جديد. كما وأن ذكريات الناصرة وشعوري الطيب تجاه الرهبان الكرماء الذين كنت في ضيافتهم جعلتني أضرب صفحاً عن النصيحة التي قدمت ضد استخدام المسيحيين. ولهذا فقد استخدمت شاباً من أهل الناصرة كان الرهبان قد أوصوني به. وقد أظهر لي هذا الشاب بأنه على علم بأحوال البلاد التي قصدت المرور فيها. ولكن عدم انصياعي لهذا التعصب العام ضد المسيحيين لم يكن له مبرر في هذه الحالة بالذات، نظراً لما لاقيته نتيجة لهذا الاختيار. وسوف ترى ذلك تدريجياً فيما يلي من الصفحات.

مررت بقرية قانا «كفر كنا» وبالبيت الذي جرى فيه الاحتفال بالعرس الموصوف في الإصحاح الثاني من إنجيل يوحنا، وما يحيط به من أشجار الكرمة العجيبة، كما مررت أيضاً بالسهل الذي عنف فيه مخلصنا أصحاب السبت، الذين لم يكونوا يراعون حرمة السبت في الأيام الغابرة، بإرغامهم الحواريين على التقاط القمح في يوم الراحة المقدس. وقد مشيت أيضاً على الأرض التي أشبع فيها المسيح الجياع. وقد رأيت البقايا المتخلفة من الوليمة العجيبة «حسب ادعائهم» وقد استحالت هذه البقايا إلى حجارة قاسية.

وقد صعدت المرتفع الذي وقف فيه يسوع عندما استنزل تلك المعجزة. ومن على ذلك المرتفع اجتلوت منظراً أخذ بمجامع قلبي على الأخص حبي السابق لرؤية البحيرات. ففي الشرق وقع بصري على بحيرة طبريا، وكانت أقل عبوساً من بحيرة وست ووكر في إنجلترا وأقل صفاءً من بحيرة وند مرمير. ومع ذلك فإنها كانت تمتاز بكل مزايا البحيرات الإنجليزية. وكأنها أخذت من السماء الباسمة شعاعاً لا ينضب له معين وجمالاً يبهر الأبصار. ومع هذا النور الذي كان يشع من سطحها، فإنها ثبتت بحذاء الجبل القائم

Twitter: @alqareah

بجانبها كما لو كانت تداعبه بتأملاتها العذبة وتدغدغه بأفكارها المشرقة.

وإذا أمكننا أن نحكم على أفكار الرجال من تتبع كتاباتهم يتضح لنا منها وجود أشخاص باستطاعتهم زيارة أي مكان هام والتتبع باستمرار وتسلسل الأفكار والانطباعات التاريخية الصحيحة التي توحيها إليهم تلك المواقع. وأن شخصاً من هذا النوع يمكنه أن يذهب إلى أثينا مثلاً ولا يفكر في شيء أكثر من عصر بركليس، ذلك الداهية العظيم الذي كان يدير كفة السياسة في أثينا في عصرها الذهبي، كما تجده طيلة إقامته في روما، وكأنه يعيش في عصر شيبو ذلك البطل الذي تغلب على القرطاجنيين وقهر بطلهم هنيبال العظيم سنة 202 ق م. ولكني لست من هذا النوع من الرجال لأنني في الواقع لا أتمكن من الجمع بين الموقع الأثري وبين تاريخه الحافل إلا للحظات قصيرة عابرة.

وهناك في طبرية وعلى طول هذا الشاطئ الغربي المتجه شمالاً، وعلى سطح البحيرة كان مخلصنا وحواريه، وفجأة تطير تلك الذكرى وتتبخر ويتجه تفكيري نحو الشرق، لأن ذلك الشاطئ البعيد كان عبارة عن نهاية العالم الذي يخص الإنسان ساكن البيوت. ووراءه العالم الآخر المحجوب يتحكم به شعب غريب، حياته أشبه بعبث الشيطان إلى أن تصل إلى أبواب بغداد فتنبسط أمامك تلك الصحراء الغامضة، وهي ليست رملية قاتمة عديمة النفع، بل هي أرض تغطيها المراعي الخضراء ولو أنها خالية من المدن والعمران وخالية من شعب محترم. ومع ذلك فإنها تقدم ثمانين ألفاً من الفرسان تقودهم فئة من الشيوخ.

ولنعد الآن إلى تفكيرنا الأعلى، طبريا وسهل جنة سارة، الأرض نفسها التي وقفت عليها. وذلك الصوت الهادئ العميق الذي كان ينبعث من مخلصنا والذي دوى في آذان الأبدية بذلك الصوت الذي ارتفع من بين هذه التلال والوديان... نعم... نعم... وأخيراً هاهو وجه البحيرة الهادئ يرتفع رويداً رويداً ويبسم أمام ناظري،

Twitter: @alqareah

ويحملق في وجهي، فيبرد تلك الأنغام العميقة الهادئة وتتلاشى تلك الجموع الخاضعة. وتعاودني عوضاً عنها تلك الذكرى المحببة عبر البحار من إنجلترا، ذكرى أصل كثير من تعاليم السيد المسيح على قلب المؤمن الفاني.

ألقيت نفسي في بحيرة طبريا. وعمت على سطحها وقضيت ليلتي في الكنيسة الكاثوليكية. وهي عمارة واسعة بحيث استوعبت كل رفاقي أيضاً. وقد تكرم قيّمها وأوجد لي مكاناً في الجهة الجنوبية من الكنيسة نقلت إليه كل ما كان معي من حقائب وأكياس وكتب وخرائط وأدوات تحضير الشاي.

وكان الشريف متديناً حقاً لذلك سر غاية السرور لنزولنا في مكان مقدس كهذا. وقد أنير المذبح بعدد من الشموع. وعندما فرغ من هذه الاستعدادات بدأ يتلو صلواته الغريبة وكانت شفتاه ترددان صلوات وأدعية، انحنى إلى الأمام حتى وضع جبهته على الحجارة التي تحته، كما يفعل المسلمون في سجودهم. وهكذا ترى أن مجاراة أي ديانة لأدوار الحضارة والتمدن وملاءمتها لعموم أصناف البشر وأحوالهم، يبرر ما تدعيه تلك الديانة من أنها سماوية الأصل، وفي جميع العصور.

وطبريا هي إحدى المدن الأربع المقدسة في التلمود «القدس والخليل وصفد وطبريا». ومن هذه المدينة، أو من جوارها سيقوم المسيح المنتظر. وباستثناء القدس إياك أن تفكر أو تحاول أن تنام في أية مدينة مقدسة فاليهود يحضرون من أقطارهم كافة لدفن رفات موتاهم في الأرض المقدسة، لأنهم لا يعودون منها مطلقاً إلى بلادهم لذلك فإن البلاد المقدسة تعج بهذه المخلوقات القذرة. وهذا يفسر لك سبب ازدياد السكان باضطراد دائم. وعندما كنت في طبريا لم يكن هناك إحصاء حديث لعدد السكان، ولكني أعلم أن عدد البراغيث التي وفدت إلى كنيستي كانت وافرة العدد. وهذه المجموعة لم تكن تشابه المواعظ التي كانت تلقى في الكنيسة. وكان همها الوحيد منصباً على شيء واحد هو امتصاص دمي، ولم

Twitter: @alqareah

يعد في استطاعتي أن أنكر تخوفي من هذا العدو البغيض، فتألبت عليّ تلك الحشود من البراغيث وجعلت تنهشني من كل جانب.

وبعد أن تقضي ليلك على هذا الحال يكون من دواعي سرورك أن تستجم قواك وأن تنهض مبكراً قبل طلوع الفجر، فتجد جلدك قد تقرح ودون أكل قد انتفختْ وجَفَّت شفتاك وغارت عيناك ولا تجد لك مخرجاً إلا أن تسرع إلى راحلتك فتركبها وتسير مستقبلاً الصباح العليل.

Twitter: @alqareah

هجودي الأول(*)

يجري نهر الأردن من الشمال إلى الجنوب متعرجاً إلى أن يصب في البحر الميت. ويكون قد كوّن حداً فاصلاً بين شعب يعيش تحت سقف البيوت وبين قبائل اتخذت الخيام مساكن لها. وهي دائمة الرحيل والتجوال في الجهة الأخرى من النهر. وكلما سرت منحدراً في طريقي من طبريا قاصداً بيت المقدس على محاذاة الضفة الغربية من المجرى عادت الذكرى بي إلى عالم الرعاة القديم والمحاربين الذين سقطوا صرعى متوسدين الثرى القريب من عنان فرسي.

تمر بالإنسان وخاصة بالإنجليزي أوقات يمقت فيها أساليب الحياة الاجتماعية المعقدة وينأى بنفسه عن أفراد الشعب المتحضر، ويكره أن يجلس في مقاعد الكنيسة، وينتقد آراء الأقدمين، ويفصل متعجرفاً بين الحق والباطل. وبالاختصار يكون كثير التساؤل والهذر والسخرية والحط من شأن الفنون والموسيقى، ومن جميع المؤسسات والمعاهد العتيدة. والرجل يشن مثل هذه الحرب الضروس ضد البشر وهو لم يتجاوز التاسعة عشرة إلى الثالثة والعشرين من عمره.

ثارت كل هذه الأفكار في مخيلتي وأنا واقف أرقب النهر ينساب في مجراه. لقد اجتزت القارة الأوروبية وفارقت صفوف الأوروبيين، وأخيراً عندما أقف على ضفة الأردن أدرك بفرح

(*) الهجود هو بقاء الجنود ليلاً دون فراش أو خيام استعداداً لمباشرة القتال.

Twitter: @alqareah

وسرور أني قد انتقلت إلى الحد الذي تنتهي عنده معالم النبل والكرامة، فهناك على الضفة الأخرى حيث تستطيع أن تعبرها بذراع واحدة، يعيش شعب لا يتأخر عن استئصال شأفتك إذا لم تكن فتاكاً أو قاطع طريق أو مسلحاً أتمَّ تسلح، لا بيت لك ولا مقام هناك للراحة والصحة والعافية لكل من كان على الحياة، تلك المرتبة الفقيرة العزيزة المتوسطة العمر المستكملة الراقية التي نسميها أوروبا. وقد سرت بضع ساعات في محاذاة الضفة الغربية من الأردن إلى أن وصلت إلى جسر المجامع الذي يقوم فوق النهر. وكان دليلي النصراوي يسير في مقدمة القافلة ولكنه ما لبث أن اتجه يساراً نحو البحر، مما أثار دهشتي وسروري.

كنت أعرف أن الطريق الصحيح إلى القدس يجب أن يسير بمحاذاة ضفة الأردن اليمنى، وقد افترضت آنذاك أن دليلي لم يعبر الجسر من تلك الناحية وليتجنب بعض الانحناءات الخطيرة حتى إذا وصلنا إلى مخاضة ضحلة عدنا إلى طريقنا الأول على الضفة الغربية. ولم أهتم بسؤال دليلي عن الطريق. فقد كان سروري بالغاً إذ يطأ حصاني بنعليه أراضي القبائل الرحل، كما لم يكن يعرف المنطقة غير هذا الدليل. فسرنا خلال المراعي الغنية على الجانب الشرقي من النهر، وقد نظرت هنا وهناك باحثاً عن المخاضة. فلم أجد غير النهر يسير قدما وفي اتجاه مستقيم نحو الجنوب. ولهذا لم ألق على دليلي أي سؤال. ويكوّن الأردن حداً فاصلاً بين الدور والخيام، إذ لم نكد نعبر الجسر حتى أقبلنا على مجموعة من الأكواخ. وقد اعترف الدليل بعد فترة من مشينا، وعندما ألح عليه خدمي بشدة وهم يسألونه عن القرية التي خلفناها وراءنا وهي آخر ما نراه، بأنه يعرف بقعة فيها خيام الأعراب الأصدقاء الذين سوف يستقبلوننا بكل حفاوة وإكرام.

كنت قد عزمت على أن لا أبرح الشرق قبل أن أرى القبائل الرحل حتى أنعم بلقاء هؤلاء في الصحراء، بين العريش ومصر، إذ لم يكن يخطر ببالي أن بالإمكان الوصول إلى الأعراب المخيمين في

Twitter: @alqareah

الجانب الشرقي من الأردن. وكنت أتحرق شوقاً إلى مشاطرة المحارب العربي الخبز والملح لدرجة أني أبحت لدليلي أن يضل بي الطريق، فقد رأيته بأم عيني يقودني خارج الطريق المؤدي إلى القدس، بل رأيته يجرني جراً نحو الأعراب في عقر دارهم. غير أني لا أدري ما الذي حملني على استبعاد فكرة خيانته التي لم أفكر بها لحظة واحدة. وكل ما خطر ببالي أن هذا المخلوق قد أخرجني عن الطريق بقصد أن يقوم بعمل تجاري مع القبيلة التي يقصدها فسررت للفرصة التي سنحت والتي ستتيح لي الاتصال بالبدو الرحل.

ولم نكد نتخطى القرية التي مررنا بها حتى لقينا خَيَّال يمتطي حصاناً ويظهر أنه أحد خَيَّالة إبراهيم باشا، عندما عبروا النهر يطلبون المراعي المخصبة على الضفة الشرقية. وقف الخيَّال وحَيَّانا وقد فوجئ لمقابلة نفر غير مسلمين ويحملون شيئاً من السلاح. وأفهمنا أننا أخطأنا الطريق بسيرنا في تلك الناحية وأننا إذا استمررنا في هذا الاتجاه قد نقع في قبضة قطاع الطريق.

استمر دليلي ذلك اليوم بطوله يركب جواده، بعيداً عن القافلة يتطلع بعين منحرفة نحو هدف كان يبدو بعيداً عن الأبصار. وقد أمضينا بقية نهارنا دون أن تقع أعيننا على أي إنسان. وكنا نعلل النفس بالوصول إلى البدو قبل مغيب الشمس. غير أن الليل داهمنا، ومع ذلك استمررنا في المشي حتى الساعة العاشرة واضطرنا ظلام الليل والوهن الذي اعترى دوابنا إلى أن نقف عند ذلك الحد. وقد قطعنا مسيرة يومين في نهار واحد. وما لبثنا أن أبصرنا أضواء على المرتفعات الشرقية، تلك الأضواء التي كانت تهتك أستار الليل من الكهوف الواقعة على جوانب الجبل والمغاور التي كان يقيم فيها، كما زعم النصراوي، ثلة من الصعاليك لامن الأعراب الحقيقيين، الذين يمكن إرهابهم في سبيل اتقاء شرهم والذين لا يرجى منهم أي حفاوة وإكرام، بأي حال من الأحوال.

طرق مسامعنا من مسافة بعيدة خرير المياه الجارية من جدول صغير، فقررنا أن ننزل على ضفتي ذلك الجدول هاجدين «والهجود

Twitter: @alqareah

بقاء الجنود ليلاً دون فراش أو خيام وهم على أهبة القتال»، وما لبثنا أن وجدنا المجرى فسرنا في اتجاهه إلى أن وصلنا إلى البقعة التي تلائم مبتغانا. كانت ليلتنا إحدى ليالي شباط الباردة. وعندما ترجلت عن صهوة جوادي وجدت نفسي واقفاً على أرض معشوشبة مبللة لا تبشر براحة وقد فقدت الرجاء في احتمال إشعال النار، إذ كان الليل حالك السواد يستحيل معه البحث عن الزيت. كما كانت أغصان الشجر رطبة ندية يصعب إيقادها. ومع هذا لم نكن نرضى الرضوخ لهجود يغشاه الظلام ويتعرضه الزمهرير قبل أن نبذل الجهد للحيلولة دون ذلك. وقد أخذ رفاقي يتحسسون طريقهم في هدأة الليل حتى اصطدموا بكوم كامل من الأعشاب الشائكة واليابسة. وقبل أن تجرد السيوف لقطعها وجدنا الزيت قد جمد على الأرض الرطبة. وقد بذلنا الجهد حتى نجد البقعة الملائمة لإشعال النار على الأرض المبللة وفيها العشب الطويل. وبعد ذلك قدحت قطعة من الصوان بزناد الفولاذ وانحنى أحد رجالي حتى قارب رأسه الأرض وأخذ ينفخ في كومة القش أنفاساً وئيدة في بادئ الأمر، ثم أعقبها بأنفاس قوية حتى انتفخت أوداجه وهو يجود بين آن وآخر بإلقاء الحطب من العوسج والعليق في النار. حتى ظهر اللهيب وقوى اشتعالها وصارت تبعث الدفء والحرارة في الأجسام، وأخذنا نلتقي على النار ملء أيدينا من أكوام أخرى حتى تصاعد اللهب إلى عنان السماء، فأبصرت على الضوء وجوه رجالي ولمحت الخيول التي تقف بعيداً عني ترعى الكلأ.

أخذ خدمي في إنزال متاعنا من على ظهور البغال كأننا وصلنا إلى فندق مريح، كما أنزل الشريف ومساعدوه سروج الخيل. وعندما غادرنا طبريا لم يخطر ببالنا قط أننا سنمضي إلى القدس عن طريق جدباء، فلم يحضر خدمي، وهم الحريصون في مثل هذه الأحوال، غير القليل من الخبز وقطعة جبن يابسة كالصخر، وقد قدموا لي هذا الكنز الثمين كما قدمت لهم الشاي، وقد تحلق الرجال في حلقة حول النار.

Twitter: @alqareah

أما النصراوي فقد توارى خجلاً بعد أن ظهر له أنه أضل سبيلنا بصورة مخيفة، وانطوى على نفسه بعيداً عنا وقبع في ركن مظلم بارد، غير أنني دعوته للاقتراب منا ومشاركتنا هذا النعيم. وقد فرشت فروتي ولحافي على الأرض كما فرش رجالي مشالحهم «المشلح: المعطف» أو ألحفتهم أو ملابسهم المتنوعة ليجلسوا عليها، وقد تجمعوا في شبه دائرة. وقد ركع بعضهم على ركبهم وبقي البعض جلوساً والبعض مضطجعين حول النار التي أخذ وهجها يتألق متنقلاً بين الوجوه. وكثيراً ما كان الضوء يتراقص على وجه الشريف، ذلك الرجل الطيب الذي جلس بلحيته الوقورة والتي كانت دليل الورع والتقى، لا يعرف شيئاً عن جغرافية الأرض بحيث لا يدرك أين يسير. ولكنه يكِلُ أمره إلى قضاء ربه وقدره وإلى حسن طالع هذا الإنجليزي الذي يسافر بمعيته. وقد يُظهر الضوء وجه الإغريقي «مسيري» ذلك الوجه الكلاسيكي، ثم ينتقل إلى وجه ديمتري ذي التقاسيم التي تفضح ـ دون أن يتكلم ـ عن خوف صاحبه وتبرز عيناه الصينيتان وشارباه الراقصان.

لقد أحببت هؤلاء الذين صحبوني في زيارتي إلى الشرق، لأنهم كانوا جميعاً شجعاناً ذوي قلوب تقية ووجوه مستبشرة. ومع أنهم في محاولتهم السير على هواي قد ساهموا مساهمة كبيرة في حمل المتاعب والمشاق. إلا أنني لم أسمع أياً منهم يجأر بالشكوى أو يظهر ما يشتم منه أنه قد استسلم لأمر لا مناص منه. نعم لقد أحببتهم دائماً وكان ذلك الحب أوضح عندما يتجمعون كتلة واحدة حول النار المشبوبة وإبان الهجود. فقد كان شعوري إذ ذاك أنهم رفاق لي لا خدم، وكانت تنتابني النشوة ويعمني السرور عندما كنت أكسر معهم الخبز وأناول أحداً منهم قدح الشاي، ومحبة الشاي مصدر عذب للشعوب الأخرى، لا فرق بين إنجليزي وآسيوي، فالشاي في بلاد الفرس ميسر للجميع، مع أنها تكاد تكون من الكماليات العسيرة المنال عند العثمانيين، فإن القليل النادر منهم لا يحب ذلك الشراب المنعش المبارك. لقد ملأت إبريق المخيم من مياه

Twitter: @alqareah

ذلك الجدول ووضعناه على النار، فأخذ الماء يهمهم ويدمدم ثم علا ضجيجه ورغاؤه فوق اللهب المتزايد إلى أن تلاقت الكؤوس فتقارعت وعلا ضجيجها ثم تصاعد البخار الشذي. ثم ما لبثت هذه الحلقة الصغيرة المتجمعة في الصحراء أن دب الدفء في أوصالها وشملها إحساس بالأمان وأخذها السرور. وكأني في غرفة استقبال زوجتي ومولاتي. ثم جاء دور الغليون وهو أجلبُ لراحة مَنْ عَضَّه الجوعُ وأضناه السير. ثم له فوق ذلك فضيلة عظمى حيث ساهم في القضاء على التكبر والغلاظة التي يشعر بها المرء عندما يكون في رفقة من يعتمدون عليه، إذ طالما كان قضيب العنبر بين شفتيه فليس هنالك ما يضيره إن التزم الصمت أو فاه بكلمات مقتضبة بين الحين والآخر.

كانت أمامنا في تلك الليلة مسائل متعددة للبحث والمداولة مما تهمنا معرفته والوصول إليه في الصباح التالي، فالطريق والطعام والخوف من الوقوع في أيدي الفلسطينيين ومجابهة الموت في النهاية كانت كلها تتطلب حلاً سريعاً. ولم يكن قلقنا أو بحثنا المستفيض هذا وليد الخيال والوهم، إذ ما تزال الأنوار تنبعث من سكان الكهوف الصعاليك. وقد أدركنا من صيحاتهم أنهم اكتشفونا من نارنا.

وأخيراً وجدنا من الأفضل أن نغمض الجفون، طمعاً في النوم بعد أن أبقينا عدداً كافياً من رجالنا للسهر والحراسة طول الليل. وقد فرشت لحافي وفروتي ومعطفي بحيث أستلقي على شكل نصف دائري، ووجهت رجلي نحو النار ولففت أطرافي وأبحت لنفسي أن أنام كما ينام جندي الميدان. ولكن محاولتي النوم على هذا البساط الواسع الذي مَنَّ الله به عليّ تجاوز في جودته وغرابته حدود خيالي وتصوراتي، فقد ألفت هذا المشهد وأنا قابع أو مضطجع بجانب النار. أما الآن وقد استلقيت بطولي على الأرض فقد تمثلت أمام ناظري أسرار السماء الغامضة فلم ترتد عيناي عن النظر في البقعة المترامية الأطراف على كل جانب. ثم أخذني الزهو بغرفة منامي

Twitter: @alqareah

هذه التي لا تعرف الحدود أو القيود. فكان لي أن أكتفي بل وأتغنى بهذه العظمة، غير أن ذلك لم يكن مبتغاي في مثل هذا الوقت. ولو كانت هذه النفس المدللة هي التي برأت هذا الوجود لكنت نعمت في عجائب ما خلقت. أما والحال غير ذلك فقد أحسست بالخيبة والخذلان إثر هذا الذي أحرزته في الانتقال من غرف محدودة وبيوت مجردة إلى قصر منيف واسع، لكنه مظلم، لا يُعرف منتهاه. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان رأسي بعيداً عن النار وعرضة للبرد والصقيع وقد عجبت لنفسي أن أستلقي هادئاً مستسلماً ونسيم الليل البارد يلفح وجنتي والندى الرطب يعلق بشعري. وكأن رأسي نبت في الأرض فعليه والحالة هذه أن يتحمل هبوب الريح وسقوط الندى للنوم على العشب الأخضر النابت في الحقول. وهكذا لم تذق عيناي طعم النوم بل كانتا ترقبان الحارس الليلي وهو يقوم بخفة وهدوء في إيقاد النار بين آن وآخر قبل أن تخمد جذوتها. وأخيراً عندما أيقظوني وقالوا إن الفجر سينبلج قريباً أفقت مما تخيلته وسطاً بين النوم واليقظة.

Twitter: @alqareah

البحر الميت

كشفت لنا خيوط الفجر الباهتة الأرض التي اخترناها مراحاً لنا، فوجدنا أننا قد ألقينا عصا الترحال على قطعة صغيرة من الأرض زرعت شعيراً. وكانت على ما يظهر تخص سكان الكهوف. أما القش اليابس والأغصان اليابسة التي كنا قد سررنا بالاهتداء إليها لتكون وقوداً لنارنا فلم تكن إلا سياجاً وضع للمحافظة على الزرع القليل. وكانت هذه البقعة هي المكان الوحيد المزروع في تلك المساحات الواسعة التي خلفناها وراءنا. وقد أسفت عندما رأيت مقدار التلف الذي أنزلناه بسبب النار والدواب.

إن قذف السروج وتقريط اللجم وتحميل الرواحل كانت من الأعمال التي يتطلب إنجازها ساعة من الزمن. وقبل أن نتم نصف عملنا هذا طلع النهار وأمكن عند ذلك أن نبصر رجال الكهوف وقد تجمعوا في جمهور يقارب الخمسين رجلاً وهم يهبطون نحونا صارخين مزمجرين. غير أنهم كلما اقتربوا منا كلما أبطؤوا الخطى وخبت حدة أصواتهم وقَلَّ صراخهم. وأخيراً توقفوا بكليتهم ولم يتقدموا قيد أنملة واعتصموا بدغل يبعد عنا بمقدار ثلاثين خطوة. وقد قام رجالي دون تعمد بما لم يكن بالإمكان القيام بخير منه، فقد تابعوا عملهم في تحميل الرواحل دونما عجلة أو ضجيج. ولست أدري أكان ذلك منهم بدافع الشعور الغريزي بأن الهدوء هو عين الحكمة أو أنهم انقادوا للميل الطبيعي إلى السكوت وهو الشعور الذي يجنح إليه الإنسان في البكور، ويمكنني القول إنه باستثناء

Twitter: @alqareah

بضع كلمات عابرة كانوا يتناقلونها بشأن عملهم فإنهم لم يتفوهوا ببنت شفة قط.

وأعتقد الآن أن ذلك الهدوء الذي استحوذ على جماعتي قد ولَّدَ رهبة عظيمة في قلوب سكان الكهوف ومنعتهم من الزحف نحونا. فقد أوحي إليهم أننا إنما نعتمد على أمر يجهلونه. وقد حاول هؤلاء أكثر من مرة أن ينفضوا عن أنفسهم هذه الرهبة وأن تدفع بهم الحماسة إلى الاستفزاز. غير أنهم سرعان ما نكصوا على أعقابهم. وإذا حاولوا أن يندفعوا بصوت واحد صارخين أو أن يتحفزوا للهجوم كتلة واحدة وراء الدغل، قعدت بهم همتهم عن الانطلاق، عندما رأوا أن هذه المحاولة برمتها لم توقف رجالي عن العمل الذي بدؤوه. فما تلبث تلك المجموعة المتراصة من الرجوع القهقرى، رجوع موجة عارمة، تحطمت على الساحل، فعادت مخذولة مدحورة. وقد جرت هذه المحاولات عدة مرات ولكنها باءت بالخسران في كل مرة وبقيت أنتظر نصف ساعة في احتمال الهجوم علينا. وخيل إلي أن أعمال التحميل والتعبئة كانت تسير ببطء شديد لم يكن متوقعاً. وقد خطر ببالي أن أطلب من رفاقي سرعة الإنجاز. وفي اللحظة التي حاولت أن أنطق فيها رأيت أن كل واحد منهم كان يقوم بواجبه خير قيام، فأمسكت عن الكلام إلى أن أخذ «مسيري» بزمام فرسي وسألني إن كنت على استعداد لأن أمتطيها. مشينا جميعاً مشية رجل واحد دون إبطاء. وبعد ذلك بقليل مَرَّ شرذمة من فرسان إبراهيم باشا الذين اتخذوا هجودهم في مكان غير بعيد عن البقعة التي هجدنا بها. ولعل معرفة رجال الكهوف بأن هذه القوة كانت قريبة منا هي التي حملتهم على أن يقبعوا حيث كانوا. وقد شاهدنا فتى أسمر الوجه معفره لا يلبس من الثياب إلا ما لف حول حقويه يرعى غنماً. ثم مررنا بعد ذلك براعٍ آخر تصحبه امرأته، فقدَّما إلينا بعض الحليب ترحيباً بمقدمنا، ولَقد أشفقت على الراعي المسكين إذ له مثل هذه الزوجة الساذجة. وعلم اللّه أن شفقتي كبيرة على هذا النوع من البشر التعساء المعذبين.

Twitter: @alqareah

وعند الظهيرة رجعت إلى خريطتي وأخذت في استجواب دليلي الذي حاول في بادئ الأمر أن يتجنب أسئلتي، غير أنه لم يلبث أن ارتمى فجأة على ركبتيه، طالباً الصفح والغفران، معترفاً بأنه لم تكن له معرفة بشيء من تلك النواحي. وهكذا وجدت أنه لا يجوز أن أعتمد إلا على نفسي. وأن ما حسبت أننا قطعناه أمس يوازي مسير يومين، فقد استنتجت أننا أصبحنا قريبين من البحر الميت. وقد أصبت فيما أحسست، إذ لم تبلغ الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر حتى وقع نظري أول مرة على ذلك الوجه الكالح البغيض.

سرت قدماً حتى اقتربت من مياه الموت التي كانت تمتد في أغوار الصحراء الجنوبية، وبدت أمام ناظري في كل ناحية مما يحيط بي وعلى امتداد البصر تلال فوق تلال، صفراء قاحلة خاوية تحيط كالأسوار بقبر تلك المدينة الهالكة الملعونة «عمورة»، ولم نسمع طنين الذباب ولم تقع أعيننا على أي عشب نابت في الأرض، وبدا الجو وكأنه فراغ لا هواء فيه. وكل ما شاهدناه بضع شجرات حملها نهر الأردن في أحد فيضاناته منذ القدم فغرست على الشاطئ المهجور وامتدت أغصانها فوق رماله، وقد أحرقتها وأحالتها إلى سواد أشعة الشمس المحرقة، طوال السنين الغابرة.

اقتربت من مصب النهر فوجدت الأرض منبسطة، تتخللها أخاديد عميقة الغور، لا تظهر للعين إلا عندما يقترب الزائر منها. وهكذا لم أقطع مسافة طويلة حتى عثرت على طريق يؤدي إلى مجرى لنهر فاستبشرت في أن أصل إلى إحدى المخاضات. وحالما وطئت قدماي على حافة النهر شاهدت بقية هذه الطريق تمتد على الضفة الأخرى من النهر. يجب أن تكون مخاضة يسهل عبورها، غير أن عبور النهر في مثل هذا الوقت من ذلك الفصل الممطر لم يكن ميسوراً وخاصة على الدواب المحملة وإنما كان في وسعي أن أعبر النهر سباحة. ولكن ما الفائدة من ذلك ورفاقي لا يحسنون السباحة ورواحلي مثقلة بأحمالها. مع ذلك لم أفقد الأمل في عبور النهر في المكان الذي يصب فيه في البحر الميت.

Twitter: @alqareah

أقبل الليل علينا ونحن نسعى جاهدين لقطع الأخاديد وكثبان الطمي ثم اضطررنا للتوقف.

كلما خطونا نحو البحر الميت كلما اقتربنا من المناطق القفراء الموحشة. ولقد اخترت تلاً لمقيلنا ونصبت على أرضه عريشة من أغصان النبات الذاوي. ومع ذلك أثارت غريزة الجوع في دوابنا المنهوكة القوى والشديدة الإعياء. ولم نكن نحن أحسن حظاً منها عندما لم نجد ما نأكله سوى بقية ضئيلة من حليب المعزى التي تبلغنا بها على ضوء نار خافتة واستراحة قليلة على ذلك التل المعرض للرياح الباردة.

بكرنا في صباح اليوم التالي نحاول البحث عن مخاضة نعبر بها النهر. وبدلاً من ذلك وجدنا مجرى النهر عميقاً ضيقاً. وبذلك ضاع أملنا في العبور إلى الضفة الأخرى، وأصبح لا محيص لنا من بناء عوامة مهما كان نوعها، أو أن نعود أدراجنا من حيث أتينا لنبحث عن مكان مناسب. لقد خطر ببالي ما يدرس في المدارس الحربية من بناء الجسور العسكرية المتنقلة. أو أن أفعل كما فعل روبنسون كروزو في رحلته المشهورة التي كان يعبر بها ما يعترضه من الأنهار. ولكنا كنا خائري العزم من شدة التعب والجوع، كما لم يكن لدينا من المواد ما يساعدنا على بناء العوامة. نعم كان على النهر أشجار العليق والشجيرات النهرية الأخرى. ولكنها لا يمكن أن تقوم مقام الخشب في بناء العوامة. كما كانت حبالنا التي نحزم بها متاعنا على دوابنا قصيرة وغير كافية لهذه الغاية.

هنا تقدم ديمتري باقتراح خلاصته أن أقتل النصراوي الذي أضلنا بدلاً من أن يهدينا سواء السبيل. ما أسهل قتل هذا المخلوق، ولكن كيف يكون وقعه على أصحابي في إنجلترا عندما يسمعون أنني سمحت بقتل رجل كان ذنبه أنه أخطأ قيادتي، فضلَّ بي الطريق السوي. وإذا أقدمت على هذه الجريمة هل سأمضي في حياتي هادئاً مطمئناً ناعم البال؟ إنني أستطيع أن أرتكب هذه الجريمة وأن أنجو

Twitter: @alqareah

من العقاب لكنها تجربة لن أحتملها. لذلك احتقرت هذا الاقتراح ونبذته.

بينما كانت حياة النصراوي موضع أخذ ورد بيننا كان المسكين يتقدم الجماعة ويقودها بهدوء، دون أن يدري ما يدور في خواطرنا، وكنت ألاحظ أن أعضاءه ترتعش وأن حواسه تنبئه بسوء المصير الذي يُبَيَّت له. مع أنني كنت أهزأ من الإقدام على قتل رجل سيزول ذنبه حالما يوصلنا إلى مجاز في النهر، فإذا وُفِّقَ إلى ذلك استحق الحياة والتمتع بها. وسرعان ما حُلَّت المشكلة فقد خضت ماء البحر الميت ومشيت نحو ربع ميل في مائه الضحل، قبل أن أستطيع الغطس والعوم فيه. ولكن الماء أحرق عيوني كما أعياني الجوع فغبت عن الوجود بضع دقائق ثم استرجعت نشاطي. وعندما حاولت أن أسبح حسب عادتي لم أستطع فقد صرت أشعر بشيء يدفعني نحو الشاطئ. وكان الماء صافياً شفافاً مما أغراني بالبقاء، ولكني أخيراً خرجت منه وسرعان ما تبخر الماء من جسمي تاركاً عليه طبقة من الملح.

Twitter: @alqareah

الخيام السود

غادرت شاطئ البحر الميت عائداً متجهاً نحو الشمال. وإلى الغرب مني كان يجري نهر الأردن الذي لا يمكن أن يُقطع. وإلى الشرق انتصبت سلاسل الجبال الجرداء التي لا نهاية لها، وفي الجنوب بحر من الصحراء لا يخترقه مجذاف. حقاً إنني ما زلت أعيش في عزلة، منقطعاً عن العالم، ولم يوقظني من ذهولي وإطراقي سوى نهيق حمار.

وكنت أسير متقدماً جماعتي ببضع مئات من الخطوات، ولم يكن معي سوى النصراوي الذي حافظ على القرب مني أكثر من ديمتري، واتجهت حالاً نحو الجهة التي خرج منها هذا الصوت لأني اعتقدت أنه حيث يوجد حمار لا بُدَّ من وجود صاحب له. وتابعت وجهتي في أرض موحلة حتى دخلت في وهدة من الأرض، بعدها وجدت نفسي أمام خيام لا تبعد أكثر من ثلاثين خطوة. خيام سوداء صغيرة كنت أتوق إلى رؤيتها منذ زمن طويل، وكانت مملوءة بالأحياء من العرب رجالاً ونساء وأطفالاً. وكم تمنيت أن يعرف رجالي موضع وجودي، لكني تخيلت أنهم لا بد وأن يهتدوا بآثار حوافر حصاني على التراب. لقد تجسم لي خطر الشك، إذا خامر نفوس هؤلاء الآسيويين شك فيّ وفي جماعتي.

لذلك لم ألتفت يميناً ولا شمالاً وإنما اتجهت نحو أبعد خيمة، فاجتزت ممراً ضيقاً من سياج من الأشواك نصب في المخيَّم على نصف دائرة. وعندما اقتربت تقدم مني عشرون أو ثلاثون بهيئات

Twitter: @alqareah

مخيفة. وعندما وقع نظري عليهم لم أجد فيهم ملامح البدو، فقد كانوا من ألوان مختلفة، من أسمر أغبر إلى أسود فاحم، حتى غلبت على بعضهم ملامح الزنوج وكانوا طوال القامات أقوياء، ولم يسترهم سوى أثواب العرب البسيطة وقد شدوا على أوساطهم زنانير من الجلد. ولما اجتزت الممر بين السياج أسرعت بالترجل عن فرسي، فتقدم مني شيخ القبيلة ورحب بي وحياني حسب عاداتهم بالمصافحة وملامسة الجبين.

وفي الحال فرش لي جلد خروف تحت ظل خيمة عربية من الخيش، وكانت الخيمة مستطيلة تضم عدداً من الرجال والنساء والأطفال متراصين بحيث لا يوجد فراغ بين الجالس وجاره.

ولقد كرر الشيخ الترحاب والتحية بأقصى ما استطاع من حماس. ولقد شرب جميع الجالسين الماء من جرة كانت في الخيمة، وقدمت لي امرأة إناءً خشبياً مملوءاً بالحليب، كان على جسمي الجائع المتعطش برداً وسلاماً.

وكما توقعت فقد وصل رجالي بعد قليل من الزمن. ولما أبصرني ديمتري المسكين أجلس على جلد خروف في هذه الحياة الزرية تملكه أشد الفزع، إذ تبادر إلى ذهنه أن الله أوقعني في قبضة أحط الناس من الفلسطينيين. ولما شهد الحاضرون صفن الدخان على وسط «مسيري» أخذ كل واحد منهم يستعطفه ويستعطيه شيئاً من هذا الدخان. ومن ذلك تبين لي مقدار الفقر والبؤس الذي يحيط بهؤلاء القوم بحيث لا يستطيع الواحد منهم الحصول على تعبئة غليون من التبغ.

بدأت الشكوك تخامرني من وقوعي في أيدي جماعة همجية قد تُبيِّت لي الغدر، لا سيما وقد وقع بين أيديهم إنسان متمدن مثلي هم في أشد الحاجة إلى ما تحويه حقائبه الثمينة. ومع كل ذلك بقيت مؤمناً بأنهم لا يتجاسرون على الإقدام على تلك المجازفة. ومع كل ذلك لم أستطع معرفة سبب عدم تقديمهم العيش والملح الذي هو

Twitter: @alqareah

ضمان السلام والاطمئنان لي بينهم حتى آمن من النهب والسلب. ولكن ظهر لي أنهم لا يملكون العيش ليقدموه لي وأنهم يقتاتون بالأعشاب مع شيء من حليب المعزى، تلك الأعشاب الحلوة التي تشتهي الشفاه العطشى مصها.

عبور نهر الأردن

أخذ ديمتري يفاوض البدو في إرشادنا لاجتياز نهر الأردن، وقد تركته يتصرف كما يشاء لجهلي باللغة العربية. ولكني استأت عندما فهمت أنه يقدمني إليهم كالصديق الحميم لإبراهيم باشا. ومجرد ذكر أسم الباشا أثار فيهم الهياج. وقد شرح الشيخ لديمتري كيف تعرضت القبيلة في هذه الأراضي الواسعة للأذى الكبير من الباشا، فقبل أسابيع قليلة عبرت فرقة من جيشه النهر وطوّقت مضارب القبيلة ونهبت جمالها وأموالها وأخذت شيخ القبيلة مع عشرة من رجالها وقتلتهم. وهنا حسبت أن علاقتي بالباشا الذي خرب بيوتهم ستجلب لهم الأذى وتلحق بي الضرر. ولكن هؤلاء الآسيويين تعودوا أن يهابوا القوة وأن يحترموا من يؤذيهم ويخشون من يظلمهم.

وبعد مباحثات قصيرة وافق البدو على أن يأخذونا إلى مخاضة. وهكذا تحركنا بإرشاد سبعة عشر من ذوي اللحى الأشداء وعلى رأسهم الشيخ علي الجربان. وعند مغادرتي المخيم رفعوا أكف الضراعة إلى اللّه طالبين نجاح القصد والأخذ باليد. وكنت أرى في وجوه هؤلاء الرجال كأسوأ ما يكون عليه الناس.

وصلنا إلى ضفة، وليس إلى مخاضة، بل إلى سيل عميق يسير فيه النهر بأقصى سرعة. لقد أنزلوا أحمالي من على الدواب وطرحوها على الأرض وابتعدوا عنا والتفوا حول زعيمهم وأخذوا يتشاورون دون أن نعرف ما يدور بينهم من كلام. وارتفع صياحهم وتخاصموا واشتد الخلاف بينهم. وكان كلامهم يدور بلهجة جافة سريعة، بحيث لم يفهم جماعتي ما يقولون إلى أن تبادر إلى ذهني

Twitter: @alqareah

أنهم عزموا على النهب والسلب، فجلست بجانب حقائبي، ولم أجد ما أتسلى به سوى اللعب بأنواع الأسلحة التي كانت معي. إذ أن قعقعة هذه الأسلحة وإظهارها واللعب بها كان سبباً كافياً لتغيير مجرى المؤامرة علينا.

كان إبراهيم باشا قد جمع أسلحتهم فأصبحوا عزلاً من السلاح، وهكذا رجحت كفة الذين كانوا يخالفون في النهب على كفة الطامعين. وبذا استحق الباشا شكرنا بأن خلصنا من هذه الورطة من حيث لا يدري.

وأخيراً عرض عليهم ديمتري أن يخلصوا في العمل نحونا بإرشادنا إلى عبور النهر إلى الضفة الغربية بأسرع ما يمكن، مقابل أن أعطيهم مذكرة وشهادة بحسن سلوكهم، على أمل أن تنفعهم أكبر النفع حين الحاجة إليها. وقد لاقى هذا الاقتراح قبولاً حسناً لدى جميع رجال القبيلة الحاضرين. وقد وعدت أن أعطيهم إكرامية من المال كالعادة المتبعة عند عقد أي اتفاق. ورغماً عن شدة حاجة القوم إلى المال كان تقديرهم للتوصية أهم من المال الموعود. ومع أن المبلغ المتفق عليه كان زهيداً جداً، فإنهم لم يحاولوا أن يطلبوا زيادة عليه. وعندما انتهى الاتفاق أقبلوا يحيونني ويحاولون تقبيل يدي.

أحضروا قِرب الماء ونفخوها بالهواء وقطعوا عصياً من أغصان الشجر وربطوا القرب بها ليصنعوا عوامة اتساعها نحو خمسة أقدام، وقد وضعوا عليها متاعي ودفعوها في النهر ولحق بها بعضهم سباحة ودفعوها أمامهم. ولما كانت في وسط النهر اشتد التيار وأخذ يتلاعب بها والرجال يغالبونه بالدفع، وكان الشيوخ على الضفة الشرقية يدعون الله أن ينجح العملية من جهة ويخشون إبراهيم باشا الذي خرب ديارهم من جهة أخرى. وكان ذكر اسمه وحده يلهب الحماس في نفوس الشبان الذين يسبحون في النهر. كما كانت النساء تشجعهم من الجهة الأخرى. واستطاعوا بكل مشقة أن يوصلوها إلى الضفة الغربية، ثم عادوا بالعوامة مرة

Twitter: @alqareah

أخرى ووضعوا فيها باقي الأحمال وجلست أنا فوقها. وبنفس الطريقة وبذات الصعوبات عبرنا إلى الضفة الأخرى، ولكن العوامة كانت قد تخرقت وتبللت بالماء ولم تعد صالحة للعمل وعاد السباحون بالجلود التي نفخوها وربطوها حول رجالي ودفعوهم أمامهم في النهر حتى أوصلوهم بسلام. ثم عادوا يدفعون الخيول والبغال التي كان منظرها محزناً وهي تجاهد لتحافظ على حياتها. لقد اجتاز الكل إلا حصاناً جرفه التيار ولم يستطع اجتياز النهر فعاد إلى الضفة الشرقية وكذلك «الشريف» العجوز الذي كان متردداً في العبور فقد ظل إلى اليوم التالي.

لقد حملني التعب على أن أتمدد على الأرض، وأشعل العرب النار والتفوا حولها، وقدمت لهم الدخان وأخذوا يدخنون الدخان الذي أعطيتهم إياه ولم يكن معهم إلا غليون واحد أخذوا يتداولونه واحداً إثر واحد ونفساً نفساً. وعلى هذه الصورة أحيوا تلك الليلة مسرورين بلذة التدخين. وفي الصباح أطلّ «الشريف» العجوز برأسه المحلوق ولحيته المباركة. ولكن الجماعة أخذوا يصيحون قائلين الشريف المسكين سليل النبي تعمد بالماء فصار نصرانياً. ولقد توهم المسكين بأنه اقترف الخطيئة، وفعل التقريع والمعيار في نفسه أسوأ الفعل.

لقد كتبت التوصية بالفرنسية ودفعتها للشيخ علي الجربان كما دفعت لهم الإكرامية الموعودة فأظهروا عظيم الامتنان وجزيل الشكر. ثم غادرت القبيلة التعسة. وبعد ساعتين أو ثلاث وصلت إلى قرية أريحا التي قامت على أنقاض أريحا القديمة فوجدت فيها بيتاً واحداً تمتعت فيه بالخبز الجيد اللذيذ. ثم غادرتها إلى مار سابا فوصلت إليه بعد غياب الشمس ببضع ساعات وهناك قضيت ليلتي.

بيت المقدس

وفي اليوم التالي غادرنا دير سابا إلى بيت المقدس. لقد شعرت بالحماس الديني مرة واحدة إذ تملكتني النشوة الروحانية عندما

Twitter: @alqareah

ركعت في كنيسة العذراء بمدينة الناصرة. ولكني عجزت أن أستعيد هذا الشعور مرة أخرى في زيارتي لكنيسة القيامة في القدس.

وصلت إلى القدس قبيل عيد الفصح فوجدتها تعج بالحجاج من سائر أنحاء العالم يحدوهم الشعور الديني للحضور إلى هذه المدينة على اختلاف أوطانهم وتباين جنسياتهم. وبمجرد وصولهم إليها دبَّ فيها النشاط وتجددت فيها الحياة. وكان معظم الحجاج من أتباع الكنائس الأرثوذكسية واللاتينية والأرمنية جاؤوا يزورون البلاد التي وطئتها أقدام السيد المسيح. وكان من المفروض على الواحد منهم أن يحج إليها ولو مرة واحدة في العمر. وكثير منهم كان قد نذر أن يأتي إليها، والذين لم تساعدهم أحوالهم المادية كانوا يوفرون منذ زمن طويل دريهمات قليلة من دخلهم المحدود حتى استطاعوا أن يجمعوا المبلغ الكافي لهذه الغاية الشريفة.

كان الزوار من البلاد المجاورة كمصر وسوريا والأناضول واسطنبول والروملي حتى ومن ولايات الدانوب ومن روسيا. وكان بعضهم يُحضر معه بضائع مختلفة تمكنه أرباحها من تسديد نفقات زيارته هذه. وكان يرافقهم نساؤهم وأطفالهم. وللنساء إيمان عميق بالروحانيات، فكنَّ يحملن معهن أطفالهن إلى هذه الأرض المقدسة كي ينعم هؤلاء الصغار بالإيمان والحج، فحجة الطفل لا تكلف ما تكلفه حجة الكبير وإذا قام بها صغيراً سقطت عنه كبيراً.

يحتار الإنسان في تعليل هذه الدوافع الشديدة نحو إقبال الناس على المسيح بهذا المقياس الواسع سواء أكان ذلك ناشئاً عن تخيلات وهمية أم كان ناشئاً عن تفكير صحيح واختيار سليم. وعلى كل حال فالدخول في التفكير بالقيام بهذا الواجب وبالاستعداد له يكفيان لأن يكفيا حياة الإنسان فيصبح حاجاً حقيقياً. إذا سافر إلى الحج أو وصل إلى البلاد التي يحج إليها. إن حياته تتجه كلها نحو هذا الشعور الروحي. لذلك كنت أرى الشوق قد بلغ أقصى حدوده في مثل هؤلاء الحجاج الذين تأخذهم النشوات الروحية.

Twitter: @alqareah

كانت مراكب الحجاج تنزل في ميناء يافا وقد جاءت كل طبقة من سكان أوروبا بسفينة خاصة بها، سفينة للنبلاء أبناء الأسر الشريفة وسفينة تحمل أدنى درجات المجتمع، كل منهما يحافظ على تقاليده وطرق معيشته.

وكان يجب أن يكون في كل سفينة كاهن يساعد ركابها على القيام بصلواتهم وتأدية طقوسهم. وكانت معظم السفن التي تنقل الحجاج يونانية. وكانت تعاني المشقات قبل أن تصل بهم إلى قرب الموانئ ولا سيما وإن سفرها كان يتم في فصل الشتاء حتى يصل الحجاج إلى القدس قبيل عيد الفصح.

ومن يافا يستأجر الحجاج الجمال والخيول والبغال والحمير لتحملهم إلى المدينة المقدسة، فإذا وصلوا أسرعوا بعرض بضائعهم التي حملوها معهم في ساحة الكنيسة فتتحول إلى سوق. وكذلك كان سكان القدس وما جاورها يعرضون في هذه السوق بضائعهم. وكان ذلك يقتضي وجود الصرّافين لتسهيل أعمال البيع والشراء تماماً كما كان صيارفة الهيكل في أيام المسيح.

عندما دخلت الكنيسة وجدت خليطاً من الناس هم أشبه بسكان بابل القديمة. وكان كهنة الروم واللاتين والأرمن يقوم كل منهم بصلواته في المساحة المخصصة له ضمن الكنيسة الكبيرة. وأخذت حشود الزوار والحجاج تدخل الكنيسة كموج البحر فكان بعضهم يضحك والآخر يتكلم والثالث يستعطي. ولكن أكثرهم يتبرك بلمس أماكن الذكريات المقدسة ويقبلها وهو يتلو صلواته ويقدم نقوده التي نذرها في الأماكن المخصصة لها، تقرباً من اللّه واحتساباً لوجهه الكريم ولم أستسغ عادة تقبيل الناس للحجارة. فالذوق الإنجليزي يمج هذه العادة ويأباها.

اعتاد ديمتري أن يخرج معي كلما خرجت ليقوم بمهمة الترجمة، وكان شديد الإيمان بالكنيسة، وكم تاقت نفسه لهذه الزيارة من زمن طويل، فلا عجب إذا رأيته يتركني ليميل وينحني

Twitter: @alqareah

على كل حجر يلثمه ويركع أمامه ويصلي بحرارة، ولكنه كان في مرات كثيرة يحتار ماذا يقبل وماذا يترك من هذه الحجارة الكثيرة.

بعض الزوار البروتستانت يشك في حقيقة هذه الأماكن ولا يستطيع النفوذ لاجتلاء وضعية القدس. فالمعروف أن الصلب وقع خارج السور، فما بال هذه الكنيسة التي قامت على مكان الصلب والقبر تقوم الآن في منتصف القدس وضمن أسوارها(*)، كيف أصبح القبر المقدس تحت هذا السقف الذي أقف الآن تحته؟ إنه قبر مستطيل جميل قسم منه تحت الأرض وقسم يرتفع عن الأرض وحوله جدران. تدخل من الباب وتهبط بضع درجات لتشاهد قناديل معلقة في السقف أضاءت عتمة المكان لترى فيه المذبح. إنك في أقدس مكان في مدينة القدس. ولا تكاد تفرغ من إشباع نظرك منه حتى تشعر باندفاع شديد نحو الخروج بسبب أنفاس الحشود العديدة الخانقة، وتسرع لتسأل ترجمانك هل ما بقي من الوقت حتى غروب الشمس يكفي لركوب الدواب والوصول إلى جبل الجلجثة «الجماجم» فيجيبك: هاهي تلك الجماجم ياسيدي، إنها في الطابق الأول من هذا البناء. هيا لنصعد ثلاث عشرة درجة. هذه الحفرات الذهبية التي توضع فيها ثلاثة من الصلبان. الأول الذي صلب عليه المسيح والآخران صلب عليهما اللصان. هذه روايات ومزاعم والحقيقة أن المدينة المقدسة بنيت حول القيامة وامتدت بالتدريج نحو الشمال مدى واسعاً بصورة أضاعت الحقائق والمظاهر الجغرافية الوارد ذكرها في الأناجيل.

وتضم كنيسة القيامة الأماكن التي وردت في حوادث السيد المسيح. على يمينك جلس وبكى. وعلى العمود الذي على يسارك رُبِط وجُلِد بالسياط. وعلى المكان الذي أمامك تُوِّج بالشوك وفوقه صُلِب وفي أسفله دُفِن. وكلها تذكرنا بحياة المخلص حتى بالمكان الذي صاح فيه الديك عندما أنكر بطرس سيده.

(*) السور الحالي الذي يضم كنيسة القيامة بني بعد المسيح.

Twitter: @alqareah

يشك البروتستانت في تعيين هذه الأماكن وحصرها. فهم بعد أن انفصلوا عن الكنيسة اللاتينية أخذوا لا يثقون بما تفسره الكنيسة تفسيراً مبنياً على التخمين والتصديق الساذج.

والمعروف أن هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين عندما زارت هذه البلاد اهتمت كثيراً بالبحث عن هذه المواقف المليئة بالذكريات. دلها عليها أبناء القدس الذين عرفوا وتيقنوا منها وهم يحرصون كل الحرص على قدسية هذه الأماكن. لقد تغيرت وضعية القدس الجديدة عَمَّا كانت عليه أيام المسيح. إن التلال وما فيها من صخور مسننة وما بينها من وديان عميقة ضاعت معالمها بسبب كثرة الهدم وتراكم الأنقاض، ولا أعرف مدينة تعرضت لهذه العوامل أكثر مما تعرضت له مدينة القدس. ومهما حصل فيها من التخريب والتدمير فإن سكانها لا يمكن أن ينسوا موقع جبل الجلجثة. وبالرغم من اتساع الفُرقة والاختلاف بين الروم واللاتين والأرمن واليهود فإنهم جميعهم لا يختلفون في تعيين مواقع هذه الأمكنة. ومع ذلك بقيت هنالك مواقع ثانوية الأهمية يتسرب إليها الشك كالمكان الذي صاح الديك فيه مثلاً.

ولنفرض أن الإمبراطورة لم توفق في تعيين مواقع الأماكن المقدسة، فقد تتبعت حوادث إنجيل يوحنا أكثر مما تتبعت أقوال المؤرخين. ومن النشاز أن تكون هذه الأماكن المقدسة تحت السلطة الإسلامية. ولكنها ضرورية بسبب اختلاف الطوائف المسيحية، فإذا حصل الخلاف فالذي يحسمه هم المسلمون الحياديون، وهم كذلك نواب للدولة يُؤمِّنون حصول كل طائفة مسيحية على نصيبها من الهبات والنذور والتقدمات من الزوار الذين يستطيعون الدخول إلى كل بقعة في كنيسة القيامة دون تميز بين جميع أبناء الديانات الأخرى. وبموجب الامتيازات التي منحتها حكومة اسطنبول للدول الأجنبية كانت حصيلة الأسد فيها من نصيب كنيسة الروم. من ذلك أنهم حازوا على الموضع المذهب الذي وضع فيه صليب المسيح واضطر اللاتين أن يقنعوا بموضع سيفي اللصين اللذين صلبا معه.

Twitter: @alqareah

وكانوا يتألمون لخسرانهم هذا ويأسفون على عزهم السابق الذي تمتعوا به أيام إمبراطورهم نابليون وسفيرهم سيبستيالي «Sebastiali» لدى الباب العالي في اسطنبول، إذ كان يسمح لجميع الحجاج أن يصلوا في جميع المزارات داخل كنيسة القيامة.

كان الحماس يشتد يوم السبت لمشاهدة المعجزة، معجزة خروج الشعلة المقدسة من القبر المقدس إلى السماء. في ذلك اليوم احتشد عدد كبير من الحجاج داخل الكنيسة، وجاهد كل واحد منهم ليحصل على مكان له. حتى أصبحت الحالة لا تطاق من شدة الزحام وفساد التنفس. واستمر الحال حتى دخل بطريرك الروم يحف به الحاكم التركي، وأخليت له الطريق حتى دخل القبر المقدس مع الحجاج من مختلف أنحاء العالم. وبعد برهة وجيزة انبثق النور. فاندفع الحجاج بصورة جنونية ليضيئوا مشاعلهم هم أيضاً. وفي هذا الاندفاع العنيف ضاعت بسببه أرواح كثير من الحجاج.

وقبل وصولي بسنة رغب إبراهيم باشا أن يحضر الاحتفال بسبت النور، فاشتد إقبال الناس واحتشد خلق كثير ولا سيما عندما أطل الباشا من شرفة عالية على الجموع المحتشدة. وتأخر انبثاق النور وفسد الهواء بصورة ضايقت الناس. ولذلك فما كاد النور يخرج حتى اندفعت الجماهير بحالة عصبية، فداس الناس بعضهم بعضاً، حتى أغمي على الكثيرين منهم. ولم يطق الباشا صبراً على هذه المأساة فهبط الدرج بنفسه وشَقَّ له حرسه طريقاً بين الحشود المكتظة مما زاد في النكبة وسبب وفاة عشرات الناس تحت الأقدام. مما حمل الباشا على أن يتولى هو بنفسه الإشراف على النظام وتصبير الناس وتهدئة روعهم حتى أغمي عليه هو نفسه، واندفع عدد كبير من الجنود شقوا طريقهم إليه وبذلوا أقصى جهودهم في إخراجه إلى الهواء الطلق خارج الكنيسة، وقد مات حوالى المائة في ذلك اليوم.

وفي السنة التالية اتخذت الحكومة احتياطات كافية لتحول دون تكرار المأساة ولم أحضر القداس بسبب وجودي خارج القدس،

Twitter: @alqareah

وعندما عدت إلى فلسطين علمت أن ذلك اليوم مَرَّ بسلام. وحصل في تلك السنة أن قبيلة بدوية كانت عقيدتها المسيحية بدائية حتى كانت تزعج المصلين بصراخها وضوضائها. وكانوا محسوبين على طائفة الروم التي كانت تشجعهم وتحضهم على حضور هذا الاحتفال، وكانت صلاتهم أشبه بألعاب بطولية أو أعمال عسكرية مما جعل اللاتين يتضايقون أشد المضايقة حتى طلب رهبان الفرنسيسكان من القواسين أن يبعدوا البدو عن هذا المكان. وقد اعترض الروم على إخراجهم بل أخذوا يمنعون القواس من تصرفاته بطرد حلفائهم الأشداء، واضطر الفرنسيكان للتراجع رغم وجود رجال الحكومة، وشق البدو طريقهم إلى الكنيسة وداسوا على البعض، وكانوا يبعثون على الرعب بعيونهم السود المتوقدة وأنوفهم المحمرة للقتال لا سيما وأن نساءهم كانت تحرضهم على التقدم وعدم الاكتراث بأي مانع أو حاجز.

بسبب هذه الصعوبات لم يحضر اللاتين سبت النور. وأخيراً أدركوا أنها خديعة دبرها الروم لإقصائهم عن هذه الاحتفالات والطقوس الخطيرة. وهكذا أصبح لهم ثأر عند الروم يجب أن يأخذوه. لذلك بدؤوا يستعدون لذلك كل موسم. وفي هذه الكنيسة المقدسة أخذت الأحقاد تتوسع والنزعات تتعاظم وتحولت إلى خصام عنيف مزمن.

دهشت من سماع حادث وقع لزائر إنجليزي كان قد انزوى في ناحية نائية من الكنيسة بحيث لا ينظر الناس إليه لضيق الهواء الفاسد، وبقي فيه هادئاً مطمئناً إلى أن مَرَّ راهب فرنسيسكاني فاستغرب وجوده هناك. ونسي الراهب مسلكه الكهنوتي ونسي واجب الضيافة تجاهه، وكان البريطاني ضيفاً على الدير، وقال إذ خاطبه أنت تنام تحت سقفنا وتأكل خبزنا وتشرب نبيذنا وعندما يأتي يوم الفصح تحارب معنا.

ومع ما في هذه الأماكن المقدسة من خصومات فإنها مستمرة وباقية إلى ما شاء الله، وسيبقى رجال الدين يزاولون طقوسهم لا

Twitter: @alqareah

يأبهون لما ارتكبوا من أخطاء في الماضي ولا ما سيرتكبونه في المستقبل، وهم يعتقدون أن ميزان الخير والشر سيكون بيدهم يوم القيامة لا محالة.

ولدى إمعان النظر في حجاج فلسطين تبين لي أنهم جماعات من الفقراء رغبوا في القيام بواجب ديني لتكفير خطاياهم وغفران ذنوبهم مع الحصول على ما يمكن من أرباح. ناهيك عن الفائدة التي يحصلون عليها بسبب التجارة في السلع التي يحملونها.

وعندما تنتهي شعائر الفصح يغادر الزوار مدينة القدس لزيارة باقي المقدسات في جوارها كبريّة يوحنا المعمدان والمغطس في الأردن والمهد في بيت لحم. يرتدون الملابس البيضاء التي تشبه الأكفان فوق الرجال والنساء والأطفال إظهاراً للرغبة في التطهر من الذنوب والتخلص من الخطايا.

جاء شيخ يوناني هرم للزيارة، وما إن وصل حتى مات، ولما ألقيت عليه نظري شاهدت إمارات الشيخوخة بادية على ملامحه ودلتني ملابسه الخَلقة على شدة فقره. وقد عُهد إلى كاهن شاب أن يقوم بجنازه ودفنه، ولكنه عندما عرف أنه لن يتقاضى أجراً عليه قام بعمله بأسرع من لمح البصر وتأفف وتذمر وصاح: غور. وسلّمه إلى من ألقاه في الحفرة بجفاء وغلظة فانكسرت رقبته وتقصفت عظامه. ولو كان المسكين حياً لصرخ من شدة الألم وتحركت تجاعيد وجهه. ولكن هذه التجاعيد لم تتحرك، فالجرح لا يؤلم الميت أو يوقظه.

لقد وجد هذا الحاج الراحة الكبرى لا سيما عندما أُلقيت عليه حفنة من تراب الأرض المقدسة حسب العادة. ثم أهيل عليه التراب بلا بطء أو تريث. ولم آسف بعد أن استراح الرجل الراحة الأبدية من آلام هذه الدنيا.

لا يمكن أن يغير مدينة القدس تخريب مساكنها فقد اعتادت هذا الخراب، كما اعتاد سكانها اللجوء إلى الكهوف المجاورة التي تؤمن

Twitter: @alqareah

للاجئين مساكن مؤقتة، حتى تمنح الفرص لإقامة أبنية جديدة. لذلك لم يتح لي النظر في وجوه يهود القدس أحفاد الذين صلبوا مخلصنا. وقد رأيت من المفيد أن أستطلع رأي هؤلاء اليهود واعتقادهم بحوادث الإنجيل. وبعد إلحاحي على أحدهم اعترف بما يؤيد العقيدة المسيحية، على حين أن يهود القدس يفسرون معجزات المسيح بأنها نوع من السحر، استطاع أن يقوم بها بين جماعة حظهم من المعرفة محدود. وبذلك أفلح الساحر الماهر. ولكن مهما كان رأي اليهود بسحر المسيح فإنه كان سحراً لاهوتياً غير بشري.

إذا أقمت في المدينة وقتاً كافياً وتعرفت على العادات وأسباب التسلية وأشغال أوقات الفراغ، لتصبح في أقرب وقت ابن بلد، فإنك ستفقد الإيمان الذي حدا بك إلى أن تحضر من وطنك البعيد إلى هذا البلد حاجاً، بالرغم من أنك تشاهد مظاهر الدين تحط بك أنّى توجهت وكيف التفت، فالفندق الذي تنام فيه دير وصاحب الملك كاهن، وخدام المطبخ رهبان. فإذا خرجت من القدس وصلت إلى جبل الطور بعد أن تمر بوادي يهوشفاط، أو على تل مجمع البشر The Hill of Evil Counsel، وإذا ركبت حصانك استطاع أن يوصلك إلى البرية التي عاش فيها يوحنا المعمدان، وإذا ساعدك وقتك ستصل إلى المكان الذي ولد فيه مخلصنا.

أما إذا بقيت في القدس فإنك ستتخذ من كنيسة القيامة الكبرى ناديك ومجتمعك، حيث يجتمع كل فردٍ من الناس في هذا المكان الواحد. وإذا مشيت في المدينة فإن ممشاك سيكون في طريق الآلام لترى مقدار الحزن والألم باقياً على وجوه زملائك من الحجاج وهم يذكرون آلام المسيح في هذا الدرب. وإذا سمعت الموسيقى بشعرت بعذوبتها، وإذا نظرت إلى صورة فإنك واجدٌ فيها عذارى أو شياطيناً أو ملائكة بأشكال مؤثرة. وإذا أحببت شراء بضاعة تودُّها وجب عليك أن تعود إلى ساحة الكنيسة حيث تجد عروضاً لأنواع المصنوعات المحلية، ولا سيما الصدفيات التي تحمل شارات المسيحية كرسم الصليب وصورة العذراء وما إلى ذلك. وهي أهم ما

Twitter: @alqareah

كان يحرص السائح على استصحابها حين العودة، لتكون هدايا الأهل وتذكار الأصدقاء. وبعد أن يشتريها السائح كان لا بُدَّ من تسليمها للكاهن حتى يصلي عليها ويطرد منها الأرواح الشريرة، فتصبح مباركة وصالحة.

بيت لحم

تقوم قرية بيت لحم على تلال في جنوب القدس وفي أحد كهوفها ولد المسيح في كنيسة مشتركة بين الروم والأرمن واللاتين. ننزل درجات تحت الهيكل إلى مغارة المهد حيث وضعت مريم طفلها يسوع وعلى هذه الصخرة جلست العذراء حينما عرضت طفلها على الرعاة، وفي هذا الكهف كان يوضع العلف للدواب في مذود خشبي. وسيعاودك الأسى مرة أخرى عندما تعلم أن البلاد رازحة تحت الحكم التركي، ذلك الحكم الذي وضعها في سجن عندما قيدها بالعادات والتقاليد القاتمة التي تحرم السائح من كل بهجة أو بسمة. ونجت بيت لحم من كل قيد فرضه العثمانيون واستطعت أن أسمع فيها الضحكات وأن أرى البسمات من بناتها المرحات.

اعترض أهل فلسطين على حكم إبراهيم باشا ونشبت الثورة عليه في كل مكان، ولكنه استطاع أن يخمدها بالقوة وحكم على كل الرجال المسلمين في بيت لحم، فهربوا قبل وصوله إليها. وهكذا زال عنها كابوسهم، فابتسمت الحياة المسيحية فيها. ولكن الحرية لم تقف عند حد لها، بل تجاوزت المألوف حتى لدى سكانها المسيحيين، لكنهم كانوا يبررون ذلك بقولهم: فلنغتبق اللذات ولنشبع من المسرات قبل أن يعود المسلمون إلينا فلا بد لهذا الليل من آخر. وأنا بدوري أشكر الله(*) على هذه الفرصة التي أتاحت لي الحياة الباسمة في هذه الزيارة، عندما شاهدت الحبور على وجوه العذارى البريئات أولئك العذارى اللاتي يخلعن عليك عاطفة الصداقة العارمة.

(*) هذه العبارات جوهرية في إظهار روح التبشير والاستعمار في القرن التاسع عشر.

Twitter: @alqareah

إنك عندما تسمع أصوات بنات بيت لحم فإن النشوة تستيقظ في نفسك المغلقة. سوف يدلف نحوك سرب من ذوات العيون الواسعة التي ترميك بسحرها ومفاتنها حتى تكاد سهامها تصيب قلبك إصابات حادة، فإذا خامر خاطرك السوء وظهرت في نظراتك نواياك، فإنهن سرعان ما يبتعدن ويختفين. أما إذا كانت نظراتك طاهرة بريئة فإنك ستحظى بالمتعة الحسنة البريئة عندما تتقدم الصبايا إحداهن وأشجعهن بالطبع، لتقترب منك وتتحسس ما على طرف ثوبك وتعبث بك قليلاً حتى تطمئن إلى حسن نيتك، وعندئذ يتدافع إليك باقي السرب ويلتففن حولك ويبدأنك بالأسئلة والمداعبات. يسألنك عن هذا الشكل الغريب الذي تدعوه قبعة، ويتطرق الحديث إلى مهارة الأيدي التي صنعت لك مثل هذه الثياب الجميلة، حتى إذا ما تعمق البحث وتخلصن من موضوع الثياب ينتقل الحديث إلى سلسلة نظرات وتأملات حول طولك غير الاعتيادي ولون شعرك الخرنوبي وحمرة وجنتيك إلى الإنكليزية المتألقة. وإذ ما حانت منهن التفاتة إلى أصابعك البارزة من القفاز فإنهن يعدن ثانية إلى إطلاق ضحكات السرور الناعمة، سيما عندما يقارنّها بجمال يديك ووجهك الذي لوحته الشمس فاختلف لونه عن لونهن الناصع بمنتهى الإعجاب كأنها تفحص شكلك ولونك كما تفحص قطعة حرير أو شالاً كشميرياً. وعندما ترى الفتيات أنك ما زلت مهذباً عاقلاً متزناً فإنهن يأخذن فجأة وبصوت عال يرددن فيما بينهن بأنك بريء ولا تريد السوء، فيأخذن الواحدة بعد الأخرى يدك الثانية ليقرأن لك حظك من كفك، ثم يفسرن ما قرأنه بأغنية أو مناقشة ولكن أشدهن خجلاً تبتعد منتقدة هذا الإفراط في الحرية التي تقوم بها رفيقاتها وتحاول العثور على مخبأ وراء أطراف آذانهن، كما تحاول أن تبدي عدم مبالاتها بالعيون التي تنظر إليها شزراً. ولكن زميلاتها الضاحكات العابثات واللواتي ليس فيهن طبع المحاذرة يحرمن رفيقتهن الخجلة من هذه المجازفات، ويمنعنها من أن تمس يد الغريب ولكنهن بعد أن تطمئن هذه الفتاة الخجولة يعدن

Twitter: @alqareah

فيمسكنها من خصرها النحيل ويدفعنها إلى الأمام بقوة فتحاول جهدها التغلب والهرب، ولكن رموش عينيها تدل على ارتباكها. وفي لحظة تتطلع عيناها النجلاوان إليك وفي اللحظة الثانية تطبقهما خجلة من ضحكات رفيقاتها.

ثم لا تلبث أشدهن خفراً وأكثرهن خجلاً أن تسبقهن إلى التقرب والعبث فتمد يدها إلى أطراف أردانك، وتحاول أن تنال أقصى ما تريد من الحرية معك غير مبالية بالعيون التي تحملق فيها، فتشتد غيرتهن من هذه المجازفة التي تمسك بيد الغريب راغبة فيه، فيمسكنها من خصرها النحيل ويدفعنها إلى الخلف بقوة. وبينما تحاول جاهدة التفلت والهرب، وقد اشتد نبضها وارتعدت أصابعها واحمرت وجناتها، يعلو ضحك رفيقاتها من هذا الاستفزاز وفجأة ينصرفن وقد تركنها في هذا الموقف الحرج. ولكنهن لا يلبثن أن يعدن ثانية بالالتفاف حولك حتى لا يوقعنك في مأزق. هكذا يعيش الغريب لحظات في سحر الشرق.

وإني آسف بأن أذكر أن إزالة الكثير من الشدة التي فرضها السكان المسلمون قد أدى إلى التطرف في الطيش والرعونة اللذين تفشيا في سلوك الفتيات المسيحيات المراهقات. وأنا موقن أن أهل هؤلاء الفتيات المتمسكين بأصول دينهم لو اطلعوا على سلوكهن لفضلوا أن يعودوا إلى تقاليد العفة والحشمة التي استنها المسلمون وتمسكوا بها. وعلى كل حال فإنه يمكنك أن تقول ما تريد في سبيل إظهار الحقيقة، دون أن تقدر على إخفاء سرورك القلبي الخالص عندما تجد هذا الربيع المبكر المتدفق من هذه الفتيات المبتهجات في صحراء موحشة قاتمة.

Twitter: @alqareah

في مصر

غزة

سافرت إلى غزة التي تقع على حافة الصحراء كما تتصل بالبحر ونزلت في خان التجار المسافرين، وانهمك ديمتري في تدبير ما يلزم لسفرنا الطويل إلى مصر. ولقد جاءني حاكم غزة يخبرني أن ديمتري حقّره وتعدى عليه فغضبت من تصرفات ديمتري التي تجلب المتاعب دائماً. ولما أحضرته وسألته عن فعلته أنكرها بالمرة وانصرف الحاكم وهو يشعر بالمرارة، لأنه عاجز عن التوفيق بين واجبه الرسمي كممثل للدولة وبين إضاعة حقه على يد رجل يتمتع بالحماية الأجنبية. وبعد أن خلا المكان لديمتري اعترف بأنه هدده وأغلظ له في القول لأن هؤلاء الشرقيين لا ينجزون عملاً إلا إذا شعروا بالعنف والتهديد، وإذا لم يلجأ لمثل هذا الأسلوب من المعاملة فإن سفرهم سيتأخر شهراً كاملاً.

وبينما كنت أطل من غرفتي العالية على ساحة الخان الداخلية قدمت قافلة من الصحراء كان فيها حجاج من مولدافيا كانوا قد زاروا كنيسة العذراء في مصر وهم عائدون منها ليحجوا إلى القدس، وقد تعرضوا للزوابع الرملية التي كادت تقضي عليهم في الصحراء.

الصحراء

وفي غزة متعهد واحد لتدبير السفرات الطويلة، فهو يحضر

Twitter: @alqareah

الجمال وأصحابها الأدلاء وينجز المعاملات المالية ويجنب المسافر من أن يبتز الحاكم التركي أمواله. ولقد اتفقنا مع أربعة من الأعراب أصحاب الجمال. وكنت قد هيأت لسفري خيمة عسكرية صغيرة وكيساً من الخبز اليابس وعدداً من قناني النبيذ من أحد أديرة القدس وقربتين مملوءتين بالماء وشيئاً من الشاي والسكر وجرة فيها زبدة أيرلندية وكيساً من الفحم. وبعد الانتهاء من تحميل هذه المواد بدأنا سيرنا. وبعد أن قطعنا عشرة أميال من غزة دخلنا فيما يسمى بالصحراء، وشعرت بالخسارة عندما مشت جمالنا على أرض مكسوة بحلة سندسية من الزهور الجميلة المنظر العبقة الرائحة، بسبب ما جادت به السماء من أمطار قبل مدة. وكنت أمني النفس أن أعبر الصحراء الملتهبة الحر. ولكن هذه النعمة لم تطل عندما ظهرت الصحراء على حقيقتها. وفي نهاية اليوم الأول أخذت أتطلع إلى شيء من الخضرة والأعشاب لترعاها إبلنا. وفي المساء نزلنا ونصبت خيمتي وحاول عرباني الأربعة أن يشاركونا طعامنا فأبيت عليهم وقلت لهم عليكم أن تحضروا معكم أكلكم، فما معي من الزاد هو لنا نحن الأوروبيين فقط. فلم يقتنعوا بل علت أصواتهم بالصراخ والبكاء لأنهم سيموتون من الجوع. ولما يئسوا من الرحمة ابتعدوا قليلاً وأخرجوا طحيناً كانوا قد أخفوه في متاعهم وعجنوا وخبزوا وأكلوا. وفي اليوم التالي حاولوا أن يرغموني على النزول وعلى استئناف السفر كما يريدون، ولكني هددتهم بعدم دفع الأجرة إذا لم يوصلوني في الوقت المحدد. وفي اليوم التالي عادوا إلى نغمة الراحة لتحضير الطعام فأبيت. ولما أحسست بالجوع اقترب مني ديمتري وهو على ناقته وقدم لي قطعة خبز يابسة بللها بالماء ومعها قدح من النبيذ، فأكلت وشربت وأنا أجد السير. وفي اليوم الرابع أحسست كأني أسير في بحر لا أرى فيه إلا الماء والسماء. وقد فاجأني بريطاني يقطع هذه الصحراء إلى بلاده بطريق فلسطين، وعندما اقترب مني اكتفيت بالتحية له برفع اليد على الرأس ومضيت، ولكن هذا الجمود لم يعجب رفاقي، فقد توقفوا عن السير وأخذوا

Twitter: @alqareah

يسألون رجاله عنه. ولما رأت ناقتي بعد أربعين خطوة أنها وحيدة امتنعت عن المشي وعادت مسرعة بي إلى رفيقاتها.

ولما اقتربت منه بادرني بإظهار إعجابه بمجازفتي. وسألته عن الطاعون الذي نسمع أنه تفشى في القاهرة، فأجاب بأن معلوماته عنه محدودة. وقد تبين لي أنه من أركان الإمبراطورية في حكومة الهند.

واستأنفنا سفرنا، وما كدنا نبتعد قليلاً حتى مررنا بخيام عشيرة في تلك الأراضي واقترب منا شيخها، وقد عجز عن إكرامنا كعادة العرب، وعلمنا منه أنه يضرب في هذه البرية تسعة أشهر في السنة لا يذوق هو وعربه خلالها الخبز ولا الماء، فناولته قطعة خبز وجرعة ماء، وعلمت أن اعتمادهم في معيشتهم على ما تجود به نياقهم من الحليب. كذلك ظهر لي أنه لا يعرف أن اليوم يقسم إلى عدة ساعات. غادرنا هذا البائس وقبيلته في هذه الحياة البائسة وتطلعت إلى التقويم الذي أحتفظ به، فعلمت أننا في يوم أحد وتخيلت الأجراس تقرع مدة عشر دقائق تدعو المؤمنين لصلاة الصبح.

وفي اليوم الخامس ارتفعت الحرارة في منبسط للأرض ليس فيه منخفضات ولا مرتفعات ولا ظل. واستمر السير ساعات وساعات والمناظر هي هي، لا تتغير ولا تتبدل، وكأني قد أصبحت قطب الدائرة فيما حولي من صحراء وما فوقي من سماء، وكل ما هنا على هذه الأرض شمسٌ هي علامة الوجود، وهذه النفس التي أحملها بين جنبي والتي لا تعرف التردد أو الخوف. وأمضيت يومين آخرين على هذه الرتابة.

وفي اليوم السادس نصبت خيمتي كالعادة واستغرقت في نوم عميق رأيت فيه نهر النيل ومآذن مصر، وكان أحد عرباني قد انصرف دون استئذان وبعد مدة عاد يقول ابشروا: نحن على أبواب العمران، فقد وصلت إلى مزارع الأرز الأخضر. وهذا ما حملني على النهوض مبكراً لاستئناف السير. وما لبثنا إلا قليلاً حتى دخلنا

Twitter: @alqareah

المراعي الخضراء ومزارع الأرز واجتزنا الحدائق والبساتين ودسنا على الأرض الرطبة. نعم لقد وصلنا إلى مصر.

الطاعون في مصر

وما كدت أنتهي من مصاعب السفر حتى جابهتني المصيبة الكبرى، ألا وهي الطاعون المتفشي في مصر. فقد وصلت إلى قرية شرقي المدينة وقابلني رجل يرتدي اللباس التركي، ثم تَبَيَّنَ لي أنه من أصل فرنسي وأخذ يحذرني من الطاعون ويمنعني من دخول المدينة. شكرته ولم أكترث، وعندما دخلت القاهرة اجتمعت بعثمان أفندي الذي يملك دوراً للإيجار وطلبت منه أن يؤجرني إحداها. وكان ذلك سهلاً عليه في الوقت الذي لم يكن في البلاد سائح أوروبي سواي. وقد ارتسم الحزن على وجه عثمان فهو يعتقد أن الطاعون سوف لا يمهله إلا أياماً قصيرة. ومن خلال حديثه ظهر لي أنه اسكتلندي المولد، وقدم إلى مصر شاباً في حملة فريزر سنة 1807 التي أُخذ فيها أسيراً وحتى ينجو من الموت اعتنق الإسلام، وحُمِل على الاشتراك في الحملة على الوهابيين. ولما تم إخضاع الوهابيين عاد عثمان إلى مصر وقد أصبح من ذوي الأملاك وانضم إلى طبقة الأفندية ونجحت أعماله نجاحاً عظيماً، فقد حصل على المال والحريم والعز والمكانة المرموقة، مع كل ذلك لم ينس مسقط رأسه. إنه يتشوق لكل ما هو اسكتلندي، حتى رف الكتب فإنه قطعة من مكتبة أدنبرة. وأخيراً مات عثمان بالطاعون.

ولما فرغت من رؤية كل ما رغبت في القاهرة أردت أن أغادرها بأقصى ما يمكن هرباً ببقية حياتي. عندما دخلت القاهرة كان الطاعون يميت خمسمائة مخلوق يومياً، وارتفع هذا العدد إلى ألف ومائتين من سكان القاهرة، البالغ عددهم مائتي ألف نسمة. وكانت الجنازات تخرج من الفجر إلى الظهر وهو الوقت الذي أكون فيه داخل غرفتي. ولكن أصوات مشيعي الجنازة كانت توقظني وتحمل إليَّ الهم والغم. ورغماً عن ذلك كله فقد بدأت الاستعدادات

Twitter: @alqareah

للاحتفال بعيد الأضحى، فنصبت الخيام وعُلِّقت المراجيح لتسلية الأطفال. فالمسلمون في القاهرة لم يتخلفوا عن مزاولة عاداتهم وتقاليدهم، رغم تفشي الطاعون، بسبب إيمانهم بالقضاء والقدر. وأخذ المسلمون يبتهلون إلى الله أن يصرف عنهم هذا البلاء العظيم. وعندما دخلت البنك وجدت المأمور قد فصل بينه وبين الزبائن بحاجز من الحديد، حتى لا يصاب بالعدوى.

ومع ذلك فإن هذا المسكين أصيب بالطاعون ومات أخيراً. وقد لاحظت أن الأوروبيين المقيمين في المدينة قد عزلوا أنفسهم ضمن مساكنهم، وإذا اضطروا لشراء شيء فإنهم يدلون الحبل ليربط به البائع المتجول ما يشترون. وقبل أن يلمسوه كانوا يغسلونه أو يبخرونه.

كان الانتقال في القاهرة يتم على ظهور الحمير. وكان يقف على باب مسكني ولدان معهما حماران، على أمل أن أركب أحدهما عندما أريد التجوال في القاهرة.

وكانت شوارعها غير مبلطة وإنما فرشت بطبقة من الحصى، وكان الزحام يشتد في الطرقات حتى كان الولد الحمّار يصيح بصوته لأن يفسح لي مكاناً أمر به، فهو يصيح يا رب، يا شيخ، يا بنت، يا ولد هذا إنجليزي غريب أفسحوا له الطريق. وكنت أحاذر أن ألمس أحداً من المارة خشية أن يكون مصاباً بالطاعون.

لم أر في القاهرة ما يستحق الاهتمام سوى مسجد جميل، بناه أثري هندي خلال إقامته في القاهرة والاتجار بها. وعندما أتَمَّ البناء دعا وجوه البلد لأول صلاة تقام فيه. ولقد صعدت يوماً إلى القلعة فاجتليت منظراً خلاباً. وحيثما نظرت وقع بصري على النيل وعلى أهرام الجيزة. تجولت في الأسواق وقد رأيت فيها بضائع أكثر مما هي في اسطنبول. ورأيت في سوق النخاسين خمسين فتاة يُعرضن للبيع، وكلهن من السود. وقد قادني النخاس إلى الطابق الثاني ليريني بعض النساء البيض. رأيت فتاة شركسية تشبه القمر

Twitter: @alqareah

في بياضها. وعندما أمرت بالكشف عن وجهها أبصرتها فظهر لي أنها عولجت حتى سمنت وحتى ابيض لونها.

ولقد رغبت في رؤية السحرة سلالة الذين غلبهم موسى وهارون بسحرهما. ولما أُحضر شيخهم قال لي إن أول عمل سيقوم به هو أن يريني وجوه أصدقائي البعيدين عني. وأشعل النار وألقى فوقها البخور فتصاعدت الروائح الزكية وأحضر ولداً من الشارع، وغطى عينيه بقماش أخضر، وسأله ماذا ترى فأجاب، أنه يرى العساكر السلطانية تخفق فوقها الرايات، ثم طلب مني أن أسمي الشخص الذي أريد أن أراه فسميت كيتي «Keate»، ولما سأله الساحر ماذا ترى أجاب أرى فتاة جميلة ذات شعر ذهبي وعيون زرق ووجه شاحب وشفاه وردية. فضحكت من هذا الهراء، ولقد حاول الساحر إحضار ولد آخر، ثم ثالث ولكنهم جميعاً عجزوا عن وصف كيتي وذكر الحقيقة. ثم فاوضته لإخراج الشياطين من قبور الأهرام. وأخيراً دفعت له الأجر المتفق عليه. ولم يعد في ثاني يوم لإخراج الشيطان لأن الموت أدركه.

وحتى اليوم السابع لم ألاحظ أي تغيير على مظاهر الحياة في الشارع، لكن بعد هذا اليوم أخذ السكون يخيم على المدينة، وقد علمت أن الموت أخذ أثني عشر ألفاً من سكان الإسكندرية البالغ عددهم خمسة وعشرين ألفاً. ولم يعد اندفاع الجنازات في الشارع العلامة الوحيدة على وجود الطاعون، فقد كان يضاف إلى ذلك أصوات الندابات واللطامات.

وكنت أستيقظ في منتصف الليل على هذه الأصوات الآتية من قريب ومن بعيد معلنة وفاة أحد السادة الذين يستطيعون دفع أجور مثل هذه الطائفة من المعولين والبكائين.

وعلمت بوجود طبيب فرنسي في القاهرة وآخر بولوني ذهبت إليه عندما أصبت بالطاعون أو توهمت. وقد علمت أن الطبيب إذا دعي لزيارة مصاب بالطاعون يعتذر لأنه لا يصله إلا ويكون قد مات.

Twitter: @alqareah

لذلك أسرعت أنا بنفسي إلى عيادة الطبيب وقرعت الباب مرات كثيرة. وأخيراً فتح الطبيب الباب بنفسه وأدخلني وأخذ يمطرني بالأسئلة عن عدد أموات الطاعون في النهار، فأجبته بأنه سبعمائة. ولما فحص حلقي وعَينَّ لي علاجاً انصرفت شاكراً، ويظهر أن المسكين عندما فتح حلقي وتنفست في وجهه أخذ العدوى مني فمات. ولقد أعلمني روسي أشرف على معسكرات المصابين من الأتراك عام 1828 ـ 1829 وكُتبت لهم النجاة لكنه مات بالطاعون. وهكذا كتب علي أن يموت كل من تعاملت معه في القاهرة. لقد مات صاحب البنك وصاحب البيت والطبيب والساحر وأحد الولدين أصحاب الحمير، حتى مات أخ وأخت البنت التي كانت تخدم في منزلي، ولم أسمع أن مصاباً واحداً بالطاعون قد شفي. وهاأنا أشعر بالإصابة، فلا بد من كتابة كلمة لأصدقائي الأعزاء أودعهم بها. ولا أعتقد أن مسيري وديمتري سيتخليان عني في مرضي. لقد مات الأطباء الأوروبيون أو هربوا ولم يبق إلا ممرض إنجليزي ما يزال يعمل في قصر الباشا، ولا يمكن أن يلبي أي طلب خاص، ولكن الحاجة حملتني على أن أكتب إليه رسالة مقرونة بالرجاء، وقد حمله خلقه الإنجليزي أن يلبي الدعوة، وجاء مسرعاً إلى مسكني وكشف على مسيري وعالجه وشفاه.

استأجرت دابتين وثلاثة جمال وغادرت المدينة الموبوءة بالطاعون. وقابلني شخص في الطريق فصاح بأعلى صوته: الباشا لا يجد جِمالاً أما إنجليزي فقد وجدها. فأسرعت الخطى وأنا خائف أن يلحقوا بي ويصادروا الجمال. ولما دخلت الصحراء شعرت بالحرية وتنفست الهواء النقي بعد إقامتي ثلاثة أسابيع في القاهرة المحمومة كنت خلالها أنتظر الموت بين ساعة وأخرى.

من الأهرام إلى غزة

لقد ذهبت لمشاهدة الأهرام التي قرأت عنها وأنا صبي في المدرسة، هذه الكتل الحجرية التي تقف أمامي تدل بغير لسان على

Twitter: @alqareah

الجهد الذي بُذل في أقامته على هذا الشكل النادر ليثبت نظرية الخلود. وبقرب هرم الجيزة الأكبر ينتصب تمثال أبي الهول وتبدو الصباحة على وجهه وهو يروي أطماع حكام مصر من الفراعنة إلى اليونان فالرومان فالعرب فالعثمانيين حتى أحلام نابليون كإمبراطور شرقي. وقد شاهد أبو الهول السياح والزوار من هيرودوت القديم إلى وأربيرتن الحديث، واستقبل غيرهم دهوراً طويلة. ولكنه سيظل صامتاً على ضفاف النيل.

أبو الهول

«وعلى مقربة من الأهرام يجلس أبو الهول وحيداً، وهو أعجب من كل ما في أرض مصر وأشد هولاً، مخلوق جميل، جماله ليس من هذا العالم. كان في الأزمنة الغابرة معبوداً، وتحول في جيلنا إلى مخلوق مشوه، وأنت ترى مع هذا شفتيه المطبقتين الثقيلتين، وقد سويّتا على نموذج جمال قديم نسيه العالم اليوم، ولم يعترف العالم بروعة الفن المصري إلا في وقت متأخر، وكان شامبوليون أول من نَوَّه به، وتبعه ماسبيرو، وثبت أن كافة تطورات الفن الشكلي أيدت شهادة علماء الأجبثولوجيا الأوائل، بل رفعت من شأن الفن الذي أبدعه أعرق الشعوب طراً. لأن الإغريق، وقد خرجت إليهم أفروديت من زبد البحر، استنبطوا من صورتها أشكالاً جديدة للجمال، ورسموا للإنسان نمط الشفاه الرقيقة التي تشبه الزهرة المتفتحة في كبرياء. فغدت للأجيال التالية شرطاً هاماً، وعلامة من علائم الحسن. ولكن الجمال، حسب القواعد القديمة ما برح حياً في بنات القبط، عندما يرمقنك بنظراتهن الجافة الحزينة، فإن شفاهن حذو شفتي أبي الهول. هذا الوثن العتيق لا يحوله ولايغيره الزمان، عينه لا تنام، يرقب على مدى الأحقاب أُسَر ملوك مصر والأحابيش واليونان والرومان، فالعرب فسلاطين آل عثمان فنابليون الحالم بإمبراطورية الشرق. ويشرف أبو الهول على المعارك والطواعين، وعلى هذا الشعب الذي لا يُعرف لشقائه نهاية، ويستعرض الرحالة

Twitter: @alqareah

ذوي النظرات النفاذة، هيرودوت بالأمس البعيد، وأربيرتن اليوم. أشرف عليهم من علاه وكأنه القدر بعيونه الجادة وسيمائه الهادئة الحزينة. سنفنى جميعاً وتقوم بعدنا أجيال وأجيال وهذه الصخرة التي لا تدركها سنة ولا نوم تظل ترقب على مدى الأزمان ما يجري على هذه البلاد من صروف الحدثان».

وقال كينغلك: «نعرف الأهرام المصرية في الصور منذ طفولتنا الباكرة. والآن وأنا أقترب منها دون أن تكون معي صورة لها، فإن الأشكال القديمة المنطبعة في ذهني منها، هي ما كنت أرى أمامي دون تغيير، هي كما عرفتها دائماً، ولقد أخذت أشب فوق الركاب، محاولاً إقناع نفسي بأن هذه هي مصر حقاً، وأن تلك الأجرام الهرمية القائمة بيني وبين جهة المغرب تتألف حقاً من مادة أصلب وأعتق من الأهرام التي رأيتها في صغري مرسومة على الورق. لم تفرض الحقيقة نفسها على عقلي إلا عندما بلغت قاعدة الهرم الأكبر، وكان معظم الحجارة أول ما جبهني في ضخامة المبنى. وعندما ترجلت عن فرسي لمست الحجر بيدي، تسلقته، حينذاك، وفجأة، تبيَّنت حجم الهرم الهائل، وأحسست بعظمةٍ تظلل عقلي، وعتاقة الهرم ليست أقل من جرمه الشامخ، وهي التي تحول بين الهرم وبين إدراكه بعقلنا الحديث. فعند قاعدته تنتهي الأرض، وفوقها يرتفع عالم تصنعه الطبيعة، ولا يبدو كأنه من صنع البشر. وإنما هو عمل جبار أقامه في عصر موغل في القدم، عمل أناخ بكلكله على ظهر الكوكب الأرضي. كلام في كلام. الحق أن الأهرام هي من بنايات هذا العالم، وأنها أقيمت حجراً فوق حجر لتحقيق لوثة ملكية تدور حول فكرة الخلود. أما عملية البناء نفسه فقد تمت على غرار ما تفعله الحيوانات الصغيرة وهي تنشئ الشعاب المرجانية العظيمة. حشود من المصريين الفقراء لم يكونوا مجرد آلات طيعة، وعبيداً للفرعون فحسب، بل كانوا يقتاتون بشرش بصل جزاءً وفاقاً على عملهم الخالد».

لقد أحببت أن أغير طريق العودة من مصر إلى فلسطين،

Twitter: @alqareah

فاتجهت شرقاً إلى السويس على البحر الأحمر. لقد أسرعت الخطى، فانقطعت عن رفاقي وأصابني الجوع والعطش، إلى أن مررت ببدوي يركب جملاً ومعه خادمه يمشي وقد تدلت من ظهر الجمل قربة ملأى فنزلت عن دابتي وبدون استئذان فتحت فم القربة وشربت بنهم. اندهش البدوي من هذا الأوروبي الذي قام بهذا العمل من تلقاء نفسه. وقطعت عليهما حبل التعجب إذ أسرعت إلى ناقتي فامتطيتها ومضيت في سبيلي نحو السويس.

وعن بعد لاح لي بيت أسود فأسرعت نحوه وأنخت ناقتي قربه، وكان البيت مخفراً أقيم لتأمين المسافرين في الصحراء، وقد لاقيت فيه الإكرام. ثم استأنف سفري وقد مالت الشمس للمغيب وما يزال أمامي مسير ثلاث ساعات حتى أصل إلى السويس. ولما وصلت إليها أضافني وكيل القنصل البريطاني وهو يعمل موظفاً في شركة الهند الشرقية، وأنزلني في البيت الذي كان قد نزل فيه الفاتح الفرنسي العظيم، وجلست على الديوان الذي جلس عليه نابليون، حيث أخذ يضع الخطط ليعبر البحر إلى آسيا. وكان أغلى ما في السويس الماء العذب. وفي أحد أيام وجودي بالسويس شاهدت عرساً لثلاثة عرسان، تقدمهم حَمَلَةُ المشاعل وقارعو الطبول ومطلقو النار من المسدسات.

الطريق الصحراوي بين السويس وغزة لا يسلكه التجار، وإنما يسلكه الرحالون، وتجد فيه الجِمال الأعشاب التي تأكلها. وبعض رماله صالح لزراعة الحبوب، وإنما يضطر البدو لإخلائه أيام الصيف بسبب فقدان الماء فيه ولا يغادرونه حتى يحصدوا ما زرعوا من الشعير. ولقد اجتزت المنطقة خلال نيسان عندما كان البدو ينتظرون حصاد زراعتهم. وهم يخزنون محاصيل الشعير في حفر عميقة في الأرض وينصبون عليها علامات لا تخفى عليهم. وكثيراً ما نصبت خيمتي بجوار مضاربهم.

لقد أمسك لي عرباني غزالة صغيرة بارعة الجمال عندما كانت نائمة، فحملتها على ناقتي وحفظتها في خيمتي طوال الليل حتى

Twitter: @alqareah

أكسب محبتها وتبقى لي. لكنها رفضت الطعام وبقيت حزينة تتطلع إلى أن تحين الفرصة لتعود إلى حريتها. لذلك أطلقت سراحها صباح اليوم التالي فغادرتني تطلب حريتها. ولقد أخبرني عرباني أنهم شاهدو آثار أسد بينة على الأرض، فاستغربت الأمر لأن سيد السباع لا يمكن أن يتخلى عن غابته ويأتي إلى هذه الأرض المكشوفة.

تختلف الجمال التي استأجرتها في هذه الرحلة عن الجمال التي استأجرتها سابقاً، فهي لا تحتاج إلى رجل يقودها ويدلها على الطريق وإنما كان لها «ذلول» تتبع خطاه ولا تضل الطريق حتى ولو محيت آثاره من أمامها. وإذا لم يكن في القافلة ذلول فمن الصعب على هذه الجمال أن تمشي مهما حاولت إجبارها. وإذا وقع اختيار الجمال على قائدها فإنها ستتبعه حتماً، شئت أم أبيت في الطريق الذي يختار.

وفي اليوم الخامس وصلت إلى وادي العريش الذي يرويه سيل معظم أيام السنة فتنبت فيه أشجار الطرفاء. وبعد مقاساة هذه الصعاب ظهرت المآذن في الأفق فتنفس العربان الصعداء لانفراج كربتي ولكن البدوي منذ أيام إسماعيل لا يحب المدن، خشية أن تصادر الحكومة جِماله، فهو سعيد إذا قضى حاجته منها بسرعة وغادرها بسرعة، ولقد سامحتهم على كل ما أبدوه من قسوة وغلظة خلال الرحلة، عندما ظهر لي أنهم لأول مرة يؤجرون أنفسهم وجِمالهم لأوروبي. وكان الجمّال شاباً جميلاً على شيء من جفاء البداوة وكان معه خمسة من البدو. وعندما وصلنا إلى مضارب العشائر بدؤوا الواحد تلو الآخر يغادروننا بالفعل. وعندما ظهرت لنا مآذن غزة لم يبق معنا إلا «سليم» صاحب الإبل، والذي بدوره حاول أن ينهي الرحلة قبل دخول المدينة. فرفضت وأصررت على وصولي إلى المكان الذي سأنزل فيه، وأخذ سليم يرجوني ويبكي. ولما فشل في رجائه ترك جِماله لي وهرب إلى الصحراء، فواصلت سفري في الوقت الذي كنت ألاحظ الحزن مرتسماً على وجوه الجِمال

Twitter: @alqareah

وهي تمشي بجانب حيطان بيوت غزة، وبقيت تبكي كالنساء وهي تعبر أزقة البلد.

وعندما حططنا رحالنا في غزة بدأت أبحث عن صاحبها سليم. وأخيراً جاء وحيداً تحت جنح الظلام ليعود بالجمال الخمسة التي كانت كل ما يملك. وفي جمع من الموجودين في الخان سلمت أحد الشيوخ الحاضرين المبلغ المتفق عليه أجراً حتى يسلمه لسليم بيده ويكون شاهداً فيما لو جاء يطالب بحقوقه.

ولقد رغبت في أن أرى حاكم غزة الذي كان قد تلقى أوامر بعزل كل من جاء من مصر، وإعادته من حيث أتى. وقابلته لأشكره على مساعدته، فقدمت له آلة موسيقية كنت قد اشتريتها من أزمير لأقدمها لأي حاكم يصنع معي معروفاً. وكان سروره بها عظيماً. وقد حملها فخوراً وأسرع إلى حريمه، ولكنه عاد بعد برهة قصيرة ليقول إن إحدى زوجاته كسرتها، ودعاني أن أمضي في غزة يومين أو ثلاثة ضيفاً عليه. ولكني أوضحت له أن الأفضل لكلينا أن يتركني لأسافر بأقصى ما يمكن من السرعة، وعندما سافرنا قدم لي خروفاً مشوياً وطعاماً آخر، فاعتذرت واكتفيت بنصف كيس من الخبز وضعته على حصاني وغادرت البلد.

من غزة إلى نابلس

لقد تخليت عن الخيمة في سفري إلى فلسطين وسوريا، بعد أن استعملتها في الصحراء، وكم كانت تجلب لي الراحة، فقد كنت أنصبها مساء كل يوم في بقعة أختارها خارج القرية ببضع ياردات لأ تزود منها حاجياتي، كالحليب والخبز والبيض، وكم شعرت الآن بصعوبة الحصول على هذه المواد شراءً بالنقود. فلقد ذهب ديمتري مع أعرابي أو اثنين أملاً في ابتياع ما نحتاج إليه ولكنه عاد خالي الوفاض، وأرسلته مرة أخرى فلم ينجح أيضاً. وهنا عدت إلى ما فهمته: من أنه لا بد من دفع إكرامية لشيخ القرية وهو يدبر كل ما أريد. وهكذا استطاع صاحب النفوذ أن يبتز من الضعفاء المساكين

Twitter: @alqareah

كل ما طُلب ليقدمه ضيافة لسائح أجنبي، وهو في الحقيقة كان قد تقاضى ثمنه لجيبه. وهنا يتوجب على السائح الأجنبي أن يتخلى عن أخلاقه ومبادئه في بلاد اعتادت أن لا تفعل الخير إلا عن طريق الخوف والبطش، فإذا كان الترجمان أو الخادم قوي الشخصية فإنه يحصل على كل ما يريد بأهون الطرق، وأسوأ من هذا أن صاحب النفوذ في البلد كثيراً ما يوقظ النيام من بيوتهم في منتصف الليل ليقدموا فراشهم إلى ضيف أو سائح أجنبي بعد أن يكيل لهم سيلاً من الشتائم. وقد يأخذ حيواناتهم ليقدمها ركائب، ويتقاضى هو أجورها لنفسه.

Twitter: @alqareah

في نابلس

نابلس مدينة جميلة تقع في بقعة تكثر فيها أشجار الزيتون، ويقال إنها تقوم في مكان شكيم القديمة. وقد اعتاد يعقوب أن يرعى مواشيه في هذا الوادي الخصب الذي ورثه اليوم شعب أقوى من نسل يعقوب التعساء. وتعتبر نابلس مركز التعصب الإسلامي، وأذكر أنه ظهر في أسواقها، قبل وصولي إليها ببضعة أشهر، رجل باللباس الإفرنجي، وقد اعتُبر هذا تحدياً للسكان، فاهتاجوا لذلك وهاجموه في صورة جنونية إلى أن قضى إبراهيم باشا بعنف على هذا الجمود والصلف فلم يعودوا يجسرون على توجيه أي إساءة لأي أوروبي فيما بعد. وعندما تجولت في الطرق والأسواق، وجدت الأمن مخيماً فاطمأننت ولكن هذا لم يكن ليمنع الرجل منهم أن يوقف عمله ويرميني بنظرات حادة وكأن لسان حاله يقول «ما شاء الله»! كيف شاءت قدرته تعالى أن يسمح لكلب نصراني بالسير في طريق المؤمنين؟(*).

ولقد كان تمرد سكان نابلس هو أعنف ما صادف إبراهيم باشا. صحيح أنه استطاع أن يخمد هذا التمرد بشدة، لكنه لم يَحُز على طاعتهم ورضوخهم لحكمه إلا بمساعدة أحد الإقطاعيين الذي

(*) الأمانة في النقل تحملنا على ذكر العبارة نفسها التي قالها الرحالة ولا يخلو ذلك من فائدة، ليظهر الفرق واضحاً بين تعصب تلك الأيام وتساهلنا في هذه الأيام نتيجة العلم الصحيح.

Twitter: @alqareah

أطلقه من سجنه واسمه أبو غوش(*). فذهب فوراً إلى جبال بلاده واخذ يختلق المعاذير ويدبر المكايد ليصطاد بها عصاة الجبال. ولقد أتقن عمله بالحيلة والخديعة، فمكن إبراهيم باشا من استئصال شأفة العصاة وتمزيقهم، فكافأه على ذلك بأن نَصَّبَه حاكماً على القدس. وقد عرفنا وتحملنا هذا عندما كنت فيها. ولم أقم بزيارته كما يقضي الواجب عند وصولي إلى القدس التي كان يحكمها. وسبب ذلك أني كنت أملك غليوناً جميلاً من الكهرمان، ولما سمع به أبو غوش أرسل إليَّ رسالة مهذبة يعرض فيها أن يبتاع الغليون مني بأغلى من ثمنه الذي اشتريته به، ولكني رفضت ولم يستطع أبو غوش أن يضيف غليوني إلى ما ابتزه من غيري.

كان يقيم في نابلس عدد قليل من الروم الأرثوذكس، وكانوا تحت سيطرة المسلمين حتى منعوا الواحد منهم أن يكلم الآخر في الشارع(**) ولكن الله سلطني على مسلمي نابلس، وسلط خدمي عليهم أيضاً. فعندما تجمع عدد كبير منهم في الشارع الرئيسي ليروا موكبنا، رأى «مسيري» تصرفاً منحرفاً من أحد المتعصبين فاقترب منه وجلله بسوطه. وقد تسرب الخوف إلى نفسي من ثورة الجمهور علينا ولكنهم ارتدوا مبهوتين ثم وقفوا لا يتحركون.

وصادف وصولي إلى نابلس، وهو أول يوم من سنتهم الجديدة، في 29 نيسان 1835. وقد خرج الشعب للنزهة خارج المدينة تحت أشجار الزيتون، وكان الرجال منعزلين عن النساء. أما النساء والأطفال فكانوا يتسلون بالأراجيح. ولأول مرة ترى هذه النسوة رجلاً في اللباس الأوروبي، وكن لطيفات جداً بحيث رفعن الحجب عن وجوههن وهن يعلمن أن هذا العمل يسر الغريب أكثر من اللعب

(*) هو الشيخ إبراهيم أبو غوش الذي سجنه إبراهيم باشا سنة 1250 هـ ثم أخرجه ليمكنه من عصاة جبل نابلس، واشتهر من أقاربه الشيخ جبر أبو غوش.

(**) لم أقرأ في أي كتاب من كتب ذلك العصر ما يثبت هذا البهتان. والحق في مثل هذه الانطباعات يتحمل وزره التراجمة الذين لم يكونوا مسلمين.

Twitter: @alqareah

بالأراجيح. وكانت فرصة لي أن أتمتع بهذا التعبير الفطري المرتسم على الوجوه الخجلة التي اعتادت التحجب الدائم. وكنّ بذلك كفتاة تلقي بحبات الجوز من رؤوس أصابعها الوردية إلى فيل أعجبها وهو يلعب في السيرك.

مريم

لا نشاط للتبشير بالإسلام في الإمبراطورية العثمانية، غير أن أسير الحرب المسيحي أو المحكوم بالإعدام كان يمكن أن ينجو بحياته إن اعتنق الإسلام. ولكن هذه الحوادث أصبحت نادرة جداً. وسيدهش الأوروبي عندما يسمع أن هذا الجو الهادئ يعكره اعتناق مسيحي للدين الإسلامي. والحادث الذي سأذكره شاع أمره في أمنع حصون التعصب الإسلامي.

أثناء وجودي في نابلس أقمت في بيت خوري الروم الذي كان قد ذهب إلى القدس لأمر سأذكره. وبقيت امرأته في نابلس تقوم بواجب الضيافة. وقد طلب مني نصارى نابلس أن أتدخل في قضية يعتبرونها على غاية من الأهمية، وقد ظنوا أنني إذا استعملت نفوذي «ولو أنني مجرد سائح غريب» سيكون مجدياً حتى لو قام بهذا المجهود ترجماني.

طرأت تغيرات سياسية أضاعت على السوريين كثيراً من القوانين التي كانت مستمدة من عاداتهم ومبنية على عرفهم، عندما نجح محمد علي باشا في القضاء على تمرد السكان واعتبروا ذلك ضربة أصابت الإسلام وقضت على الفضائل الإسلامية. لكن تصميمه على تنفيذ إصلاحاته أجبر هؤلاء الشرقيين على الرضوخ للحاكم الذي أمده الله بقوة من عنده.

لقد أصبحت سوريا ميداناً للصراع الآسيوي الأوروبي الذي فُرض عليها. وبرغم وجود الجيوش المصرية الكثيرة، فقد فهم كل فلاح أن أربعة أو خمسة من الوجوه الشاحبة في فيينا أو

Twitter: @alqareah

بطرسبورج أو لندن(*) يمكن أن ينزلوا الباشا المصري من عليائه بمجرد ورقة يكتبون عليها حكمهم عليه. وكان في علم الأهالي أن قوة محمد علي مستمدة من القائد الفرنسي وفنونه الحربية ومن المحركات والآلات الإنكليزية. لذلك كان القلق والاضطراب مخيمين على جميع سكان المنطقة من أجانب وأهالي. وصار السوريون ينتظرون تغيرات جديدة تأتيهم من أوروبا لأن بلادهم حتماً ستحكمها إحدى دولتي أوروبا القويتين، فرنسا وإنجلترا.

لقد تغير رأي الأهالي في الاعتماد على الدين أو العادات القديمة، واتجه الميل إلى أن تكون الروابط مبنية على الآمال والآلام ولم يعد الرجل يسأل عن دين جاره وأصله، بل عمن يكون حاكمه. وبعبارة أخرى من الذي سيقبّل أقدامه؟ ومن الذي سيجلد على أقدامه. وفي الأمثال السورية «عامل صديقك كأنه سيكون عدوك يوماً ما وعامل عدوك كأنه سيكون صديقك يوماً ما». ولقد ذهب السوريون إلى ما هو أبعد من ذلك عندما أخذوا يعاملون كل أجنبي كأنه سيكون يوماً ما حاكماً لبلادهم، ومن هنا بدأ الميل لدى سكان آسيا الغربية نحو الترحيب بكل رجل أوروبي وبكل رأي أوروبي.

ولقد كان للإنكليز نصيب أوفر من هذا الميل، بحيث أن شيخاً مسلماً فَرَّ من الخدمة العسكرية وتهرب من الواجب جاء يلتمس من لابس البرنيطة الملعونة الحماية لصاحب العِمة التي لم تعد ذات فائدة على حماية صاحبها. وحتى كبار الموظفين كقائد حامية غزة مثلاً كان يحرص على أخذ شهادة مكتوبة من سائح بسيط يزكي فيها حسن سلوكه وهو يعتبرها جائزة كبيرة وأنه ملك حظاً وافراً.

إن النتائج الآنية لخضوع الآسيويين للأوروبيين قد تكون ضرورية للأوروبي الموجود في الشرق، ولكني شخصياً لا أحب أن أمارس هذه الظاهرة ولا أن أغتنم هذه الفرصة لأستفيد منها.

(*) يعني رجال السياسة.

Twitter: @alqareah

أما الذي حصل فهو أن ديمتري، كأي ترجمان آخر، كان هو الشخص الوحيد بين رجالي الذي زاول هذا الحق واستغله ونجح بوساطته في الحصول على كل ما يريد.

تعلم ديمتري الخياطة بسبب ظروفه العائلية والمادية ولكن الكنيسة وآدابها جعلته رجلاً شجاعاً، وقد وجد في حياة القديسين كل الفضائل فأخذ يقلدهم ويقتدي بهم. هذه التربية مكنته من أن يتغلب دائماً على أخصامه المسلمين وحتى تمكن من التغلب على أصحاب النفوذ منهم. وبسبب أنه قضى معظم حياته في الولايات التي كانت راضخة للحكم الإسلامي فقد نشأ على كره المسلمين وكان صليبي الشعور، يستطيع أن يهاجم المسلمين متسلحاً بمعلوماته التي اكتسبها من طول وجوده في بلادهم، وأصبح في إمكانه الحصول على كل ما يريد من أصحاب النفوذ. هذا السلوك الذي لا أقره كان في أكثر الأحيان يحطم كل العوائق في سبيل وصولنا إلى ما نريد في هذا الجو الإسلامي المتعصب، أما أنا فقد كنت بعيداً عن صليبية ديمتري ولم أقدم له أي مساعدة عندما كان يتورط بسببي، مع علمي أنني كنت مجرد ورقة يلوح بها للخصم. ولقد ساعدني على هذا الموقف أنني لم أكن أشترك في هذه المشاكل وأتعرض لمخاطرها، ونفعني هدوئي واعتدالي.

إن الحادث الذي حمل المسيحيين في نابلس على طلب مساعدتي كان بسبب فتاة مسيحية جميلة يتراوح عمرها بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة كانت قد تزوجت رجلاً من دينها. وفي يوم زواجها صادف أن رآها وجيه من ذوي النفوذ والثراء من المسلمين فوقع في حبها لدرجة الجنون. ولما كان الحكم الجديد قد ضرب على أيدي أصحاب النفوذ بشدة ولا سيما عند تعديهم على المسيحيين خطر ببال هذا الرجل أن الحل الوحيد الذي يمكنه من الوصول إلى غرضه هو حمل الفتاة على اعتناق الإسلام، وعندئذ سيبطل زواجها الأول ويسهل عليه أن يجعلها آخر نسائه وأجملهن. حقاً لقد كان هذا الوجيه عملياً عندما أخذ ينصب الشراك للوصول

Twitter: @alqareah

إلى صيده. إنه لم يرسل إليها أفصح علماء المسلمين ولم يقنعها بما حوته سورة البقرة من الخلود ولا ما نطقت به سورة المائدة من جمال العقيدة والروح، ولم يرسل إليها نسخة من المصحف، لكن عجوزاً قامت بأداء الرسالة وفعلت فعلها، عندما حملت سلة مملوءة بالحلي والجواهر والشالات والثياب. ولما لبست المسكينة مريم الجواهر وشالات الكشمير عرفت العقيدة الإسلامية واعتنقتها وتخلت عن دينها القديم. ولما عرف هذا الوجيه أنه لا يستطيع أن يحمل فتاة على ترك دينها واعتناق دينه بمجرد رضاها لجأ إلى المال وقدمه لحاكم القدس حتى يحصل على موافقته. وأخيراً نُزعت مريم من بيتها ووضعت تحت رعاية السلطة الإسلامية التي رفضت تسليمها لعاشقها بل وضعتها في المسجد(*) حتى تتم مراسيم إسلامها، وقد ظلت أمها يومين أو ثلاثة تحاول الاتصال بابنتها، فقد كانت الأم تنكر إسلام ابنتها. وفي ساعة معينة اجتمع في المحكمة الشرعية أصدقاء الوجيه وأقارب الصبية، وعندئذ سُمع صوت البنت وهي تقول «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» وقالت لأمها «هل سمعت يابنت الكلب»، جرى كل هذا في بلد يُعتبر في طليعة البلدان التي تشيع فيها السيادة الإسلامية ليستطيع الوجيه العاشق إثبات دعواه. ومع ذلك فإن خوري الروم حمل رسالة وذهب بها إلى حاكم القدس «أبو غوش» ليطبق فيها إجراءات الوصاية ويطلب إيقاف العروس.

وفي الوقت نفسه فإن القاضي الشرعي لم يتخذ خطوات أبعد، خشية أن تكون خارجة عن تعاليم القانون الجديد أو تُحسب تآمراً على إخراج البنت عن دينها. واكتفى بوضعها تحت حمايته حتى يبت في أمرها.

اتضحت الأمور عندما طلب مسيحيو نابلس مساعدتي، ولكني شعرت بأن ليس من شأني أن أتدخل في قضية معقدة، بين زوج

(*) لا شك أنه يعني وضعها تحت كفالة القاضي مثلاً.

Twitter: @alqareah

مسيحي ومحب مسلم، فاعتذرت وقلت للزوج: ياهذا لقد غاليت كثيراً في استرجاع صبية جلبت لك ولأهلها العار بهذا السلوك. ولكن إصراري على عدم المداخلة لم يكن كافياً في رأيه ليمنعني عن تقديم أي مساعدة ولا يستطيع أن يُقدِّر حرج هذا الموقف إلا من وقفه يوماً ما، فأنا حائر بين التدخل بشؤون بلاد أخرى وبين الأمل بنجاحي إذا قلت عبارة واحدة تكفي لأن تزيل العراقيل من الطريق وتُسهل الأمر الصعب. ولكني عندما سمعت قولاً من أحد أقارب البنت تأكدت أن مداخلتي في سبيل استرجاعها ستكون ضارة جداً، فقد سمعته يقول إذا أمسكناها فإننا سنضربها حتى تموت.

وهكذا تصورت أن البنت إذا أعيدت إلى أهلها ستعامل معاملة بربرية، وهذا ما جعلني أتمنى أن يتشدد المسلم في الاحتفاظ بحبيبته وتجنيبها الموت الذي ينتظرها في ما لو أعيدت إلى زوجها.

وفي اليوم التالي عاد خوري الروم فاشلاً من مهمته لدى حاكم القدس أبي غوش الذي أعماه ذهب الوجيه المسلم عن توسلات المسيحيين ودعواتهم. وقد أعلمت المسيحيين في اجتماعاتهم أنني فكرت في القضية فتبين لي أن المسألة الدينية يجب أن توضع جانباً، لأن البنت حالما اعتنقت الإسلام تخلت عن عقيدتها المسيحية ويجب النظر إليها كطفلة لا دين لها، ولا سيما وقد أصبحت على دين الذي غمرها بالجواهر وكساها بشالات الكشمير.

وهكذا استطعت أن أبعد عن هذه القضية النظرة الدينية وأخرجت العريس من هذا الأمر، وحصرت شعوري في مصير الفتاة وأظهرت له أن كل الدلائل تشير إلى أن الحق مع الوجيه المسلم الذي كان أعلى درجة في الحياة من الزوج التعيس، كما قدم لها أصدق الأدلة على تمسكه بها وتفانيه في سبيلها، ثم صرحت إلى جميع الحاضرين أن الوجيه في نظري يستطيع أن يكون خير زوج. ولذلك فإنني أوافق على إبقائها معه.

Twitter: @alqareah

غادرت نابلس وأنا موقن بأن مريم قد سُلِّمت إلى محبها المسلم، ولكني ما لبثت أن علمت أن القضية لابستها أمور أخرى، فإن الحماس الديني الذي يجيش في صدر ديمتري جعله يتميز من الغيظ لا سيما من امتناعي عن التدخل في القضية، فاستغل اسمي واتصل بالحاكم وهدده بمركزي وتأثيري إلى أن حصل منه على وعد بإعادة البنت إلى أهلها. ولم أعرف شيئاً من أعمال ديمتري هذه إلا عندما أخبرني بما سيرى بعد أن غادرنا سوريا وانفصل عنا ديمتري. ولم أعلم كذلك إذا كان حاكم القدس قد بر بوعده. ولكن الذي ما زال يزعجني هو مصير الفتاة مريم إذا وقعت بين أيدي أهلها المسيحيين.

Twitter: @alqareah

في صفد

النبي دامور

مضت ساعات وأنا أسير بمحاذاة الشاطئ لبحيرة طبريا الجميلة، وعندما اتجهت غرباً وجدتني أسير في منطقة جبلية، كلما تقدمت فيها إلى الأمام كلما زادت طوبوغرافية أرضها اختلافاً. وأخيراً اقتربت من مدينة صفد الواقعة على قمة علو صخري كأنها قلعة مهمة، تزينها أشجارها الباسقة، وأبهة مآذنها الشاهقة، وصفد هي إحدى المدن المقدسة عند اليهود، فقد ذكر في التلموذ بأن مسيا «المسيح المنتظر» سيمضي أربعين سنة فيها قبل أن يحتل صهيون. وقدسية هذه المدينة وأهميتها التاريخية التي اكتسبتها على مَرِّ السنين جعلتها مأوى مرغوباً به عند الإسرائيليين الذين هاجروا إليها، فبلغ عددهم أربعة آلاف نسمة وهم يشكلون نصف سكانها. ولقد علمت أثناء وجودي في طبريا أن سكانها مسلمون مشاكسون يحبون الأذى ولذلك نصبت خيمتي على بعد من أسوارها.

وعندما خَيَّم الظلام واختفى القمر فوجئت بعمل ما لم أكن أتوقعه وهو أن بعض اليهود أتوا إلى خيمتي تحت جنح الظلام، يطلبون مساعدتي لإنقاذهم من خطر داهم سيحيق بهم. ولقد فهمت أنهم يطلبون مساعدتي على أساس أن بعض يهود صفد هم من رعايا بريطانيا. وقد قدّموا اثنين منهم ليتكلما معي بالنيابة عن الجميع. دخل الاثنان خيمتي، أما الأول فقد ادعى أنه النائب للقنصل البريطاني في صفد ومعه سكرتيره وقد قال إنه لا يجرؤ أن يُظهر نفسه أمامي في وضح النهار، ولكن الظلام هو الذي جعله يمثل

Twitter: @alqareah

أمامي، مخاطراً بنفسه، وحمل إلي هذه المهمة، وأما الثاني سكرتيره فهو يهودي من جبل طارق كان يجيد الإنجليزية وعلى جانب من الثقافة.

لقد أخبرني الاثنان أن يهود صفد، بالرغم من غناهم العظيم، عاشوا في معزلهم آمنين مدة طويلة دون أن يعكر صفوهم شيء إلى أن حدثت ثورة سنة 1834، وأساس هذه الثورة أنه في بدء هذه السنة قام رجل مسلم متدين يدعى «محمد دامور» ونزل إلى السوق منادياً متنبئاً أنه في 25 حزيران سيقوم عباد الله الصالحون ضد اليهود ويسلبونهم أموالهم وممتلكاتهم من ذهب وفضة وجواهر. ورغم أن حماس هذا النبي قد أثّر بعض التأثير على المسلمين إلا أن المياه جرت في مجاريها إلى أن كان يوم 15 حزيران. وما طلع صباحه إلا وقد كان المسلمون يملؤون شوارع المدينة ليروا بأم أعينهم حقيقة هذا النبي. وفجأة ظهر محمد دامور بين هذه الجماهير المحتشدة الصاخبة وأخذ يصيح بملء فيه عالياً محققاً ما أتى في نبوءته. وما إن رأى اليهود ذلك حتى توارى بعضهم عن الأنظار وبقي آخرون ولكن القسم الأخير لم يكن أوفر حظاً من القسم الأول، فكلاهما استسلم للقدر عندما نهبت متاجرهم وسلبت أموالهم وحلاهم. وكان أفظع منظر في هذه المأساة هو منظر الرجال وهم يجردون نساء اليهود من ملابسهن ليستولوا على ما يخبئنه من ذهب وفضة بلا شفقة أو رحمة أو مراعاة لقوانين إنسانية(*).

هذا ما كان من المسلمين. أما ما كان من اليهود الفقراء فإنهم استسلموا للقدر عندما جبنوا عن المقاومة في حينها، وحيث كانت ممكنة وفعالة. حتى إنه في حوادث عديدة كثيراً ما كان يدخل صبي مسلم في العاشرة أو الثانية عشرة إلى بيت اليهودي فيسلبه ماله على مرأى منه ومن عائلته دون أن يحرك ساكناً أو يجرؤ حتى على المقاومة البسيطة.

(*) هذه عادة اليهود في كسب عطف أصحاب القوة من الأجانب ولو عن طريق الكذب والمبالغة.

Twitter: @alqareah

ولما هدأت العاصفة وعادت الأمور إلى مجاريها جُوزِيَ بعضُ المسلمين، الذين لم ينهبوا، بما يكفيهم لشراء السلاح والعتاد وأما الآخرون فولوا الأدبار لأنهم كانوا من العصاة المتمردين. ولم يعوَض على اليهود شيء مما خسروه رغم أوامر الباشا الصارمة التي تدعوهم إلى إعادة كل شيء إلى صاحبه. وعندما عُيِّنَ حاكم جديد على المدينة زوده الباشا بالأوامر الحازمة لإحصاء خسائر اليهود ولاكتشاف المجرمين وإرغامهم على رد المنهوبات إلى أصحابها، ولكن هذا الحاكم رغم التعليمات الصارمة التي وجهت إليه لم يفعل شيئاً في صالح اليهود. فاحتج هؤلاء ثم احتجوا ولكن دون جدوى. وأخيراً بمساعدة قنصل إنجلترا في الشام عين مساعد للحاكم «مديرا» يكون له الحق في أن يراقب أعمال الحاكم ويجبره على عدم التحيز لأي فريق ويدفعه بكل قواه لإرجاع الحق إلى ذويه. وكانت هذه هي المسؤولية التي ألقيت على عاتق المدير بموجب التعليمات التي وردت إليه، ولكنه رغم هذا وذلك لم يَسِر بدوره بدعاوى اليهود على خطوة عملية واحدة لأن المدير والحاكم عاشا على وئام تام واتفاق وطيد مع محمد دامور ورؤساء الناهبين.

قال الوفد اليهودي هذا هو ما أصابنا في الماضي قد بسطناه لك. إلا أن مخاوف جديدة أخذت تنتشر بين اليهود وتفزعهم، ولهم الحق في أن يخافوا وأن يفزعوا، لأن محمد دامور سينزل إلى السوق مرة أخرى وينادي بنفسه ما نادى به المرة الأولى بهذه المسألة الخطيرة. وإن كلمات رجل كمحمد دامور الذي ينظر إلى الأمور بنظر ثاقب هي مطاعة ولا يمكن تجاهلها.

لقد ضحكت حينما سمعت كلامهم، كما سررت جداً على قصة النبوءة الثانية، ورغم هذا كله فقد حزنت لحالة اليهود المضطهدين الذين حاولوا أن يكسبوا عطفي، ولو بالتملق حينما دعاني يهودي يعيش في سوريا «يا ابن بلادي». مع العلم بأنه مولود بجبل طارق. ولقد ترددت بين أن أتدخل في أمر لا صالح لي به، وبين أن أرفض مَدَّ يد المساعدة لقوم هذا بؤسهم وهذا شقاؤهم.

Twitter: @alqareah

وأخيراً اخترت الأمر الأول لأني وجدته أهون الشرين، ولأن رفض المساعدة هو أمر دنيء لا محالة وقبيح. ولقد ظهر لي أن خير وسيلة لحسم النزاع وتأمين اليهود هو إلقاء القبض على محمد دامور. وبما أني كنت على اتصال وصداقة مع حاكم دمشق فقد فكرت في أن أكتب إليه رسالة عارضاً عليه رأيي في المسألة. وعندما وصلت إلى هذه الدرجة أخبرت اليهود بأنني على استعداد للاتصال بالحاكم صباحاً. فشكروني وكانوا جد مسرورين لمدة وجيزة إلا أنهم بعد أن تروووا في الأمر وفكروا قليلاً انقلبت أفراحهم أتراحاً، لأنهم أكدوا لي أن أي محاولة تصدر من الحاكم لإلقاء القبض على محمد دامور ستحمل سكان صفد المسلمين على إعلان العصيان والثورة ضد اليهود ونهبهم وتشريدهم والقضاء عليهم.

خرج الزوار اليهود ولم يبق إلا اثنان منهم، وبدأت أتشاور معهما في الأمر مدة لا أدري مداها ولكنهما بقيا أخيراً على رأيهما في الأمر. ووافقوا بأنه إذا ألقي القبض على محمد دامور فسيثور المسلمون ويذبحون اليهود وينهبونهم، فتزداد حالهم سوءاً ويزداد الطين بلة. أما أنا فكنت لا أرى رأيهم في هذا الموقف. ولكن ليس بي حاجة لأجبر قوماً على قبول مساعدة لا يريدونها. وفي الوقت نفسه لا حاجة للسرعة لأن اليوم المضروب لنهب اليهود مرة أخرى حسب نبوءة محمد دامور ما يزال بعيداً.

وأخيراً اعترف اليهود أمامي بأنهم رغم تنكرهم تحت جنح الليل والمخاطرة التي تعرضوا لها كي يصلوا إلى خيمتي، إلا أنهم لا يمكنهم والحالة هذه أن يقترحوا أمراً يكون فيه خلاصهم، سوى أن أذكر للقنصل في الشام مبلغ بؤسهم ومقدار شقائهم. فوعدتهم بذلك، ولقد وفيت بوعدي.

شكرني الزائرون لأنني كنت على استعداد تام للعمل في مصلحتهم، ثم أرسلوا لي نساء كبار اليهود يشكرونني الشكر الجزيل، وقد قرنّ رسائلهن بخمرهم اللذيذ الذي اكتسب لونه القاني

Twitter: @alqareah

الجذاب من لون خدودهن، كما أرسلن ما لَذَّ وطاب من الحلوى والكعك.

تركت صفد وقادني التجوال إلى أماكن نائية عنها حتى إنني لم أسمع ما حل في ذلك اليوم الذي عينه محمد دامور لنهب اليهود للمرة الثانية. فإذا كان وعيده لم يُنفذ فإن ذلك كان من قبيل الفلسفة والتنبؤ، لا من قبيل الوجهة العلمية. وهذا القول سيؤدِّي به من قمة عظمته الشهيرة التي اكتسبها في النبوءة الأولى إلى الحضيض ويطيح به من الأوج إلى الأسفل(*).

وبما أن الكولونيل كمبل «قنصل بريطانيا في الاسكندرية» قدر خسائر اليهود بسبعين ألف جنيه وهو من المقاومين لسلطان محمد علي، فعلينا أن نعترض على صحة ما قيل من أن محمد علي لم يعتقد أن هذه الخسائر تجاوزت 25 أو 30 ألف جنيه.

وعندنا وثيقة رسمية محفوظة في السجلات الملكية في القاهرة كتبها بوغوص بيك الأرمني الذي كان يشبه وزير الخارجية في حكومة محمد علي هذا نصها:

«أمر منه إلى بوغوص بيك في 22 ربيع الآخر سنة 1253هـ بأنه علم من إفادته جواز إعطاء الرد بعدم ورود تعليمات عند وقوع استفهام من قناصل الدول الأربع عَمَّا يختص بمسألة صفد، والباعث

(*) مما تجب ملاحظته أن القناصل الأوروبيين والمؤلفين المغرضين قد بالغوا في الخسائر التي أصابت يهود صفد، وهاهو جرمانوس بحري الذي أرسل إلى صفد ليدرس حالة اليهود، عاد بتقرير قدمه لمحمد علي قال فيه: «بما أن قناصل الدول أكدوا لليهود أن الحكومة المصرية ستدفع خسائرهم من خزانتها، فإن الكثيرين من اليهود قد اعتدوا على الحق وبالغوا فيه. ولقد بذلت قصارى جهدي في أن أحمل الحاخامبين على الرجوع إلى الحق الصراح ولكني لم أنجح». وفي هذا الموضوع كتب حنا بيك بحري إلى إبراهيم باشا كتاباً هذا نصه: «إن شقيقي عبدكم كان قد ذهب إلى صفد بمأمورية تحقيق منهوبات القاطنين في الجهة المذكورة. فعند وصوله إلى هناك علم بأن قوائم المنهوبات المقدمة من طرف هؤلاء اليهود تتضمن أشياء لا وجود لها. كما أن الثمن المقدر للأشياء المدونة يبلغ الضعف، لأنهم قاموا بإغواء بعض وكلاء القناصل أن بدل منهوباتهم سيصرف من الخزينة».

Twitter: @alqareah

لذلك ما ورد من سليمان باشا «الجنرال سيف الفرنسي» رئيس الجهادية وأنه قد استنفد إعطاء الإجابة عند الاقتضاء هكذا».

أمر منه إلى بوغوص بيك في 29 رجب 1253:

«قد علمت نتيجة تقارير القناصل الجنرالية المختصة بمادة سلب يهود صفد، المقال وقوع ذلك بأدلة غير مقبولة وتصميمهم مصادرة أملاك أُناس فقراء من مسلمي تلك الجهات غير مجنوحين فيها، وبما أن قبول رغائب الموما إليه هذه أمرٌ لا يتصور ولم يسبق تنفيذ أغراض مثل هذه في مملكة ما، كما هو إحاطة علمهم. لكن ما دام أصدقاؤنا القناصل أصروا وصمموا على ذلك فتخلصنا من هذه القائلة فقد صدرت الأوامر خطية إلى سليمان باشا ببيع أملاك وعقارات هؤلاء الفقراء لتقسم أثمانها على المدعين كذباً. وتلك الأوامر مرسلة عن طية لتسليمها إلى القناصل ليوصلوها بمعرفتهم إلى الباشا الموما إليه».

ومع كل هذه الترضيات التي قدمها محمد علي إلى الدول الأربع: بريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا، فإنهم لم يرضوا على حكومته بل ساعدوا الدولة العثمانية عليه. ولما تكاتفت هذه القوى على إبراهيم باشا واضطر لمغادرة الشام إلى مصر لحقه الجنرال جوكمس «Jockmas» من حاصبيا إلى صفد في أول كانون الأول سنة 1841، ولكن لم يدركه فيها فقد أسرع منها إلى جنين. وهكذا عادت البلاد إلى الحكم التركي.

Twitter: @alqareah

في طريق العودة

في دمشق

أمضيت يومين في انتقالي من صفد إلى دمشق وأنا تحت تأثير جبل الشيخ المكلل بالثلوج، وبعدها دخلت منطقة الدفء. ثم ما لبثت أن سمعت هتاف الجماعة «شام شريف» ففهمت أني وصلت إلى البلد التي طالما تاقت نفسي لزيارتها. هاأنا بين جدرانها وفي طرقاتها وعلى طول نهرها وتحت أشجارها، هاهي مآذنها تعانق السماء حتى تكاد تلامس قرص الشمس، هانحن في منطقة عريقة وغنية.

قبل سنتين كانت دمشق قد بلغت الذروة في كره المسيحيين الأوروبيين حتى لم يتجاسر أحد أن يظهر في أسواق دمشق وهو يرتدي اللباس الإفرنجي. ولكن جهود المستر فارين «Farren» قنصل بريطانيا وضعت حداً لمصاعب الإنجليز في دمشق حتى أصبحت دمشق العربية آمن من أكسفورد الإنجليزية، والتي لاقى فيها سائح أمريكي من الصعاب مما أدى إلى تدخل قنصل بلاده لدى حكومة صاحبة الجلالة البريطانية في العام الماضي.

وحدث لي أن كنت ماراً في السوق فمد شخص لسانه تهكماً واحتقاراً، فداهمه ديمتري بحصانه وطرحه أرضاً أمام كل الناس الذين لم يجرؤوا على إظهار أي عنف أو قوة. وخلال إقامتي في دمشق دخلت الحمامات العامة دون أي صعوبة، وفي الحقيقة أصبحت علاقاتي مع المسلمين فيها على أحسن ما يكون في أي بلد آخر.

Twitter: @alqareah

وفي السوق الرئيسية بدمشق ممشى للمارة وحوله صفة ترتفع قدمين أمام الدكاكين، لم يكن يسمح لغير المسلمين أن يمشوا عليها. فلما جاء القنصل البريطاني وسُويّت الأمور، وبينما كنت أمشي على هذا الرصيف وكأنني في طريقي إلى أسواق لندن استغرب عملي هذا أحد الرعايا المسيحيين ويظهر أنه كان بعيداً عن دمشق منذ سنوات. فقد كان يمشي على الأرض الواطئة وأنا أمشي على الرصيف، وسايرني وهو يظهر افتخاره عندما رأى أحداً من أبناء دينه يمشي على الصراط المخصص للمؤمنين والمحرم على الكفار.

ولما وصل إلى المكتب قال: وأنا أيضاً إنجليزي وأعتبر أعداء الإنجليز أعدائي، ولكنا شعب واحد والمسيح ملكنا. إنني لم أجد مبرراً لهذا الشعور المرير المكبوت في نفوس المسيحيين في الشرق.

هذه دمشق جنة الله في أرضه، بقصورها وحدائقها ومياهها المتدفقة، وظلال أشجارها الممتدة مسافات طويلة، ومتعة حماماتها ولذة مقاهيها المنتشرة على جوانب الشوارع والتي يقصدها الرجال في الأماسي لتدخين النارجيلة والتحدث بهمس وصمت مهذبين. وقَلَّ أن تجد بيتاً ليس حوله حديقة أو زهور ورياحين مع بركة في فناء الدار وكتابات على الجدران وقد فرشت الأرض بالرخام، وفي كل غرفة ديوان يدور حول الجدران من الجهات الثلاث، وقد فُرش بالسجاد العجمي، كما علق القرآن على الجدار. وتسمع خرير الماء وصوت النارجيلة في كل بيت، ويعيش في القسم الداخلي من الدار النساء والأطفال. إنها مناظر تذكرنا بأندلس أسبانيا في الحمراء وقصر إشبيلية. والدمشقي مغرم بتربية الخيول التي تعيش مرفهة في إسطبلاتها، وفي شهر أكتوبر يمتطون صهواتها ويخرجون للصيد بالبنادق والكلاب. هاهي أزهار دمشق تعطر الجو وتجذب أهلها إلى السير في كل أوقات الفراغ حتى يفترشوا كل بقعة خضراء على ضفاف النهر. إنهم يتنعمون بما فيها من خضار وفواكه وحلويات. وداعاً يا جنة اللّه في أرضه.

Twitter: @alqareah

هاأنا في بعلبك أقف مندهشاً بين أعمدة خرائبها، ولن أذكر مقاييس الأعمدة ولا أسباب خلودها بل أُسرع لأجتاز جبال لبنان التي تذكرني بجبال البرانس وبودیانها العميقة وسفوحها المتماوجة وسمائها المجللة بالغيوم. هاهو الشرق الصامت المقنّع، رجاله ونساؤه، بالحزن قد خلفته ورائي يعج بدياناته التي أورثت الاحتكاكات والمنازعات، وها بصري يمتد إلى البحر في الغرب حتى أرى مرسيليا وما وراء أعمدة هرقل لأنتهي من الماضي السحيق في القدم إلى المستقبل الذي لا نهاية له. ثم أخذت في الهبوط إلى الساحل لأشاهد ما بقي من أشجار الأرز في لبنان، وقد ذكر لي شيخ من أبناء المنطقة أن السبب في ضآلتها وقلة عددها يعود إلى ظلم أحد الحكام في الساحل الذي أجبر السكان الأحرار على مغادرته واللجوء إلى هذه الجرود. وقد اضطروا أن يقطعوا أخشاب الأرز للتدفئة، وكانوا كلما كثروا توسع استهلاكهم لهذه الأشجار القديمة، حتى قامت الكنيسة الأرثوذكسية تعلن أن هذه الشجرة المقدسة لا يجوز أن تُقطع بعد أن شاركت في بناء بيت الله، هيكل أورشليم، في زمن الملك سليمان.

استضافني شيخ يسكن في أحد الوديان، وقد وجدته على جانب من الذكاء وبُعد النظر، وقد أدرك أن أوروبا ستتدخل في شؤون سوريا ولن تتركها لحكم محمد علي، ولذلك أحضر معلماً إيطالياً ليعلم ابنه اللغة الإيطالية. وكم تفتحت مشاعري عندما سمعت صبياً في الثانية عشرة يشرح لي بلغة إيطالية مفاهيم الشرق وعاداته وتقاليده التي لا عهد للأوروبي بها. كان يقول ذلك دون ترجمان ولكن بلباقة، حتى كانت تصرفاته تضعه في نظري في مكانة كاهن كاثوليكي وبحياء الفتاة ولطفها. ولقد زاد في المجاملات عندما ذكر لي أن هذه المنطقة، تحت أمري، لا تحت أمر والده. ولقد كرر كلمة الترحيب «أهلاً وسهلاً» بنغمة عذبة. مما جعلني أحترم سكان الجبال وأشعر بهم، عندما ألمس ضعفهم عن مقاومة محمد علي

Twitter: @alqareah

الذي كان يملك السهل والبحر، أما هم فكان ينقصهم الخبز والذخيرة. ومع ذلك جندوا خمسين ألف جبلي للثورة عليه.

في آضاليا

لقد اتفقت مع ربان السفينة أن ينزلني في أي ميناء أمر به إذا رغبت في زيارته، ولقد قاسيت الأهوال في رحلتي البحرية من تقلبات الجو، ولكنني اكتسبت معلومات من الذين كانوا في المركب لا يمكن أن أستفيدها من الكتب، وكان بينهم جنرال روسي قاد معركة «شطاليا»، وبعد مسير يوم مرهق اكتشفنا أننا ما زلنا في الشمال من جزيرة قبرص. فتسرب الملل إلى نفوسنا وأخذنا نتسلى حتى رسونا في ميناء آضاليا في جنوب آسيا الصغرى. وقد مُنعنا من النزول، لأن الوالي فرض الحجر الصحي على كل قادم من سوريا. فأسرعنا بإرسال رسالة نلتمس منه السماح لنا بالنزول إلى البر وزيارة المدينة، وكان الجواب أن الأمر صادر من اسطنبول ويجب التقيد به. وعندئذ شعرنا أننا خرجنا من سجن البحر لندخل سجن الحجر الصحي مدة أسبوع، وهذا أمر لا يطاق، وقررنا أن ننزل إلى البر مهما كلفنا الأمر. لقد نزلنا إلى القارب وأمر القائد الروسي بأن يُرفع عليه علماً حربياً روسياً، وقد صبرت مكرهاً أن أنضوي تحت علم غير العلم البريطاني. ولما داست أقدامنا اليابسة تجمهر علينا خفر السواحل فأطلقنا عليهم طلقة مدفع محشوة بالكحل فتفرق الحرس مندهشين مذعورين، وسار أمامنا البحَّار الذي يحمل العلم الروسي وتقدمنا نحو القلعة وقد التف خفر السواحل حولنا. ثم غلط الجنرال الروسي بعدم معرفته بالنفسية الشرقية، فقد وجدت في هذه الأثناء أن الجنرال الروسي التفت إلى أحد أتباعنا وأخذ يكلمه، وكان هذا الجنرال يجهل نفسية الشرقيين، وللحال تبادر إلى ذهن الجند أننا في خوف وأننا نود التسليم. فضيقوا علينا وبيتوا البطش بنا، ولكننا تقدمنا نحو القلعة التي كان فيها نحو خمسين أو ستين جندياً باللباس الأوروبي، كانوا قد وقفوا بشكل نصف دائرة،

Twitter: @alqareah

وفتحوا لنا الطريق حتى وصلنا إلى القاعة التي لم تكن أكثر من غرفة واسعة. وأبى الجنرال إلا أن يمشي إلى حيث يجلس الباشا في صدر القاعة. وعندما شاهد الباشا الوالي هذا الهجوم بدون استئذان امتقع لونه وعلت وجهه صفرة الموت وابيضت شفاهه، إلى أن جلس الجنرال بجانبه وجلست أنا بجانب الجنرال ولاحظنا على المشاهدين علائم الاستغراب والتهكم على الباشا، وكان يقوم بالترحيب طبيب إيطالي طلب منه الباشا أن يخبرنا أننا تجاوزنا أوامره، لذلك كان مضطراً لإيقافنا على الشاطئ، وعندئذ اندفع الجنرال يُفهم الباشا أن منعنا من النزول كان تحدياً لنا وتحقيراً لنا، وقد عاملنا رجاله كما هم يعاملون اليهود الشرقيين التعساء. إن جلالة الإمبراطور يعرف كيف يحفظ رعيته من الإهانة، ولا يصبر على تحقير أحد قواد جيشه ليُعامل كيهودي شرقي. وهنا دَبَّ الرعب في قلب المترجم الإيطالي وتخلى عن عمله إذ لم يستطع أن ينقل هذه الغلظة والشدة في القول، فتولى الجنرال الكلام بالإيطالية معتمداً على معرفته للفرنسية، ولكن أحداً من الحاضرين لم يفهم منه كلمة واحدة.

وأخيراً أخرج جواز سفره وأشار إلى العلم الروسي. لقد فعلت هذه الإشارة في الباشا فعلاً ملحوظاً، فأخذ يميل إلى المصالحة ليحافظ على ماء وجهه واكتفى منا بالحجر يوماً واحداً. ولكنا رفضنا. وعندئذ تجلت نفسيته الشرقية فلم يكتف بتلبية طلبنا بل وعدنا بالخيول لنركبها، ولما وصلت المحادثة إلى هذه المناسبة السارة أديرت القهوة وأحضرت الغلايين وأمضينا حوالى ساعة في أحاديث الود والصداقة. وقد حدثنا الباشا أنه كان قد أُسِرَ في الحرب الروسية وهناك عرف مقدرة القيصر، وهو الآن يلمس دليلاً جديداً على هذه القوة. ولما تمت زيارتنا خرج لوداعنا وقد أُحضرت الخيول فعلونا سروجها، وعندما بزغ القمر من خلف جبال طوروس كنا نشق طريقنا لنواصل سفرنا الشاق عن طريق البر.

Twitter: @alqareah

المحتويات

* استهلال 5
* المقدمة 9
* تمهيد تاريخي: الإمبراطورية العثمانية 13
* الليدي هستر ستانهوب 17
* ملحق «1» 34
* ملحق «2» ملكة تدمر 38
* ملحق «3» الليدي وحكام المشرق العربي 44
* قدس الأقداس 53
* هجودي الأول 61
* البحر الميت 68
* الخيام السود 73
* في مصر 89
* في نابلس 102
* في صفد 110
* في طريق العودة 116

Twitter: @alqareah

Description of the East Description of the East

A Travel to the East

A.W. Kinglake

هذه الرحلة

قام الرحالة البريطاني كينغلك A. O. Kinglake برحلته الشهيرة إلى المشرق العربي عام 1834 - 1835 عندما كانت الرحلات إلى هذه البلاد حلماً يراود كل فتى أوروبي، لكن السياحة فيها كانت محفوفة بالمخاطر ولا يقوى عليها إلا من كانت تستهويه المجازفات والمخاطر، مع توافر نفقات الرحلة. استغرقت سياحته نحو عام كامل وكان يرسل أخبارها بشكل رسائل إلى صديقه إليوت واربرتون Eliot Warburton الذي كان يزمع الرحيل إلى المشرق، فاستفاد منها في كتاب رحلته الذي سماه «الهلال والصليب». تحفل الرحلة بمعلومات قيّمة، سَجّل فيها كينغلك المؤثرات والانطباعات التي تركتها في نفسه، من عادات أهل البلاد الذين زارهم واختلط بهم واطلع على أفكارهم وخَبِرَ تقاليدهم بأسلوب قصصي وصفي جذاب يأخذ بمجامع القلوب▪